د. عبد الحميد حيفري

فرانز فانون

بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته







د. عبد الحميد حيفري

فرانـز فانـون

بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

مقـــدمـــة

اذا كان حسب هذه الصفحات أن تكون تعريفا بالدراسة النفسية الاجتماعية للشخصية الجزائرية من خلال أعمال «فرانز فانون»[1] فإنها تعرف في الوقت نفسه بأعمال هذا الطبيب والعالم النفسي والفيلسوف الاجتماعي والكاتب الثوري .

هذه الصفحات اذن مساهمة في تناول فانون وابراز اعماله واظهار أفكاره للعالم العربي الذي لا يزال الى الآن - على الرغم من ثوريته الكامنة التي اكتشفها فانون

---

(1) كان للوصف الذي تضمنه كتاب فرانز فانون «علم اجتماع ثورة» أهمية بالغة في ابراز الملامح الرئيسية للشخصية الجزائرية وصورها العامة والخاصة لدى المواطنين عند الاحساس بالأزمة السياسية ابان الثورة المسلحة ، وكان ذلك ذا صلة وثيقة بالبحث ، مما جعلنا نترجم المقدمة والفصلين الأول والثاني من هذا الكتاب ، ونضيف نصوصه الى دراستنا حتى نوضح هذه الملامح بالكيفية التي تجلت فيها ضمن كتاباته .

نفسه ـ يجهل كل مقومات الفكر التاريخي المتجدد الذي أرسى فانون قواعده على أساس من المنظـور الاجتماعي بشقيه العصابي والظاهري في آن معا .

وهذا طبيعي جدا لأن فانون الذي نشأ نشأة علمية تجمع بين الفكر والطب النفسي ، حتى حصل على درجته العلمية في الأمراض العصبية عام 1951 قد وجد نفسه مدفوعا الى استكشاف طريقة ظاهرية لمتابعة الظواهر الاجتماعية الثورية ابتداء من بوادرها الأولى كمجرد خلافات حول وضعية المرأة وقضية تغلغل الاعلام الأجنبي بأجهزته ومخططاته الاستعمارية ، حتى يرتفع من بعد إلى أعمق أغوار العمل الثوري وايديولوجية التقعيد التاريخي ، وينفذ من هذا السبيل الى التعريف بحقيقة الرجل الجزائري كثوري مواظب ، ويرسم لوحة كاملة بعد هذا كله للاستعمار.

واذا شئنا هنا أن نضع ايدينا بادىء ذي بدء على مصدر الحركية الثورية عند فانون ، لوجدناه قائما في ثنايا فكرته عن صلة المثقف بالجماهير .

فالجماهير لا تكتشف وعيها الكامل السياسي والاجتماعي الا بلقائها مع عنصر التوجيه الواعي المتمثل في المثقفين ..

وقد حلل ذلك فانون بصورة ثورية اجتماعية نفسية عقائديه . فالعنصر المثقف هو الادارة الموجهة الواعية للجماهير ، وللمثقف دور مميز في تكوين هذا العنصر الاداري الموجه الضروري .. وتعد هذه النقطة بمثابة الضرورة التاريخية بالنسبة لكل عمل ثوري يحرص على عدم انفصال المثقف عن الجماهير وعلى عدم عدائيته للجماهير بعد أن يثقف .

ان البحوث الجزائرية حول الثورة الجزائرية لم تدرس حتى الآن كما ينبغي ولم تصنف حسب المواضيع .. وباستثناء محاولات قليلة فلا نجد تصنيفا علميا يمكن أن يشكل تمهيدا لبحوث معمقة .. واذا لم تكن نصوص الثورة الجزائرية مقترنة باسم معين ، اذ كانت معظمها تصدر باسم جبهة التحرير الوطني ، فان الأضواء قد تسلطت بقوة ، ومنذ سنة 1957 على كتابات الدكتور فرانز فانون ، لكونه اعتبر ابنا للثورة الجزائرية قد نضج فكره محتكا بها ومنفعلا معها .

ففانون ، هذا المثقف المارتنيكي المندمج في قاعات باريز وأوساطها الثقافية سيتحول الى مناضل للثورة الوطنية الجزائرية والاستقلال الافريقي ، ثم ان مصيره يكمن في مقدرته على ادارك المشاكل ، لا في المجال المحلي فحسب ، ولكن في النطاق الدولي الواسع .

فوضعية فانون بالمارتنيك قد منعته من قبل من اكتساب صفة مناضل ثوري بجزر المارتنيك ، لكن ذلك قد فتح له في الواقع امكانيات جديدة ، امكانيات المشاركة في معركة التحرير الوطني لقارة بأكملها والتعبير بمظاهرها العامة ومشاكلها العميقة .

وقد وضح استخدام هذه الامكانيات المقالان اللذان اصدرهما عامي 1952 و 1955 تحت عنوان «أمراض شمال افريقيا» و «الافريقيون وسكان الآنتي» كان فانون في هذه الفترة قد أنهى دراساته في الطب النفسي ، فكان عليه إذذاك أن يوضح بصفة علمية مرتبطة بخبرته الطبية وضعية الرجل الخاضع للاستعمار ، وضعية عاشها ويعيشها ، جسمت تجربة شخصية ساعدته على اكتشاف الملامح الكبرى لشخصية هذا الرجل المستعمر وطاقاتها العظيمة في مواجهة خطر الاستعمار ...

وقد اختار فانون ان يعمل في الجزائر ـ بلد الاستعمار يومئذ ـ ليعيش ويناضل ضمن مستعمرين مثله ، وهو الموضوع الذي تناوله في محاضرته تحت عنوان «عنصرية وثقافة» والتي ألقاها عام 1956 في المؤتمر الأول للكتاب الزنوج .. وسيكون التحليل هذه المرة أكبر حدة والالتزام

أعظم قوة ودقة ، اذ سيندرج تعريفه للعنصرية في اطار مجموعة مميزة ، هي «مجموعة استغلال شعب من طرف شعب آخر[1]» ليصل الى نتيجة واحدة تتمثل في ان نتيجة النضال المنطقية هي التحرير الكامل للتراب الوطني[2] .

ولم يكن هذا النضال مجرد كلام . فمنذ أن أصبح فانون طبيبا للأمراض العصبية بمستشفى البليدة ، اندمج اندماجا مطلقا في صفوف المنظمة الثورية الجزائرية وكان ذلك جنبا الى جنب مع نشاطاته الطبية التي رأى في نطاقها مرضاه ضحايا نظام استعماري يحاربه ويسعى الى استئصال جذوره .

وقد عمل فرانز فانون طويلا على جمع كل التحليلات المتعلقة بظاهرة المرض الاستعماري المنظور اليه من خلال الأمراض العصبية ، وانطلق في تفحص العادات والتقاليد المحلية للجزائر ودراسة علاقاتها بالاستعمار .. وهكذا ظهر من جراء خبرته المكتسبة في قلب المعركة ذاتها ، كتابه «علم اجتماع ثورة» أو «العام الخامس من الثورة الجزائرية[3]» .

---

1) Frantz Fanon : « Racisme et Culture » in « Pour la révolution africaine » Maspéro 1964-page 37.

(2) نفس المرجع ص 161

3) Frantz Fanon : «Sociologie d'une révolution» : L'An V de la révolution algérienne, petite collection Maspéro, Paris 1968.

لقد أدرك فانون أن الاستعمار يشوه الطبيعة الانسانية تشويها . وهو ان لم يستطع أن يمحق الإنسان الخاضع لسيطرته نهائيا أو يقتلع منه جذور ثقافته وأصالته فانه سيدفعه على الأقل الى الانغلاق على نفسه وتبني طريقة جديدة للمقاومة هي الاحتماء بأشكال الثقافة القديمة البالية .

وأبرز فانون في مؤلفاته مدى تجارب الشعب الجزائري الكبرى فلمس الحقائق الثابتة لطابع شخصية الجزائري ، ووضح بدون مبالغة ولا تعصب ولا رجعية من أن تمسكه بالثقافة التقليدية خلال فترة الاستعمار قد اعتبر مظهرا ايجابيا فعالا من مظاهر المقاومة ضد الاستعمار .. ذلك أن الملامح الثابتة للسلوك الجزائري كتعبير عن الشخصية ، والملامح الاستثنائية للسلوك الجزائري كتعبير عن مواجهة استثنائية أيضا ، وكتعبير عن طاقات جديدة وقدرات عامة ، تطلبها السلوك لمواجهة أخطار خارجية وقت الثورة .. وبطبيعة الحال تكون أنواع السلوك هذه تعبيرا في هذه الحالة عن الشخصية الجزائرية من جهة ، وعن قدراتها وطاقاتها وقت ظهور الخطر الخارجي من جهة أخرى .

واذا كان يمكن اكتشاف ملامح جديدة عند الشخصية الجزائرية بعد الاستقلال ، فهذه الملامح ليست

وليدة التوتر العارض أثناء حرب التحرير ، وانما هي وليدة الاستقرار من أجل البناء ، وهما موقفان مختلفان تمام الاختلاف من حيث الأسلوب .. وهكذا تظهر الشخصية الجزائرية بصفات جديدة ، ولكنها كانت بغير شك كامنة في ملامح الشخصية الجزائرية خلال فترة الصراع والكفاح الثوري .

ولعل اهمال فرانز فانون وكتاباته التي اخترنا أن نترجم منها المقدمة والفصلين الأول والثاني من كتاب «علم اجتماع ثورة» قد حملت في طياتها كلها معاني متفجرة وأفكارا ثائرة ... واذا كنا في بحثنا هذا من المعجبين بفانون أو واقفين موقف الحياد ، فاننا من الذين يؤمنون بأن اسم «فانون» سيرن في رأس كل من يتكلم لغة التحرير ... على ان اسمه قد اقترن من خلال الثورة الجزائرية بكفاح كل الشعوب المضطهدة التي تسعى الى ضمان حريتها ووجودها .

وسوف نرى عند استعراضنا لملامح الشخصية التي تناولها فانون في مؤلفاته كيف عمل فانون بجهد على التنديد بالنظام الاستعماري ، وتصور المعركة المباشرة ضد هذا النظام كمعركة من أجل وحدة افريقيا كلها ، رابطا بذلك مصير الثورة الجزائرية بمصير القارة الافريقية بأكملها .

ولعل الفكرة التي تبناها فانون ازاء افريقيا قد جسمتها مهامه التي قادته الى بلدان افريقيا الغربية والتي رجع منها تعبا مرهقا ومصابا بسرطان الدم الذي سيذهب بحياته في وقت غمر نفسه إيمان عظيم باستقلال الجزائر واقتناع بتحرير افريقيا كلها .

«ان الأمة الجزائرية لم تعد اليوم مرسومة في آفاق خيالية ، ولم تعد وليدة خيالات غامضة قد اعتجنتها الخرافات والأوهام ، ذلك أنها قلب الجزائري الجديد ذاته ، وهو رجل «ذو طبيعة جديدة» وذو ابعاد مستحدثة لوجوده[1] . »

1) Frantz Fanon : « Sociologie d'une révolution ». (Page 12).

الفصل الأول

حياة فانون .

وتكوينه النظري والايديولوجي

ولد «فرانز فانون» في مدينة «فوردي فرانس» من أسرة تتألف من ثمانية أولاد وبنات .. ويبدو أن ميلاد فانون كان لغرض محدد .. فمن الناس من يولدون لحمل رسالة معينة في حياتهم ومن الرجال من يظهر لا ليعيش ولكن ليؤدي دورا محددا تخلقه الظروف خلقا من أجله . فاذا كان المسيح قد خلق لمواجهة الظلم واذا كان محمد عليه السلام قد ظهر لمواجهة القوى الباغية المسيطرة على المال وعلى الناس ، واذا كان كارل ماركس قد خلق ليلعب دوره ضد النظام الرأسمالي واذا كان «غاري بالدي» قد ظهر لمحو الفقر في «صقلية» واذا كان «لينين» قد أوجدته الحكومات الاوتقراطية القيصرية في روسيا كما خلقت الامبراطورية البريطانية «غاندي» ، فقد جاء ميلاد فانون للوقوف في وجه الرجل الأبيض . وكانت هذه المواجهة مفروضة على فزانز فانون

الذي ولد في «جزر الأنتي» بالمارتنيك الفرنسية وكانت رسالته للدكتوراه في الطب العقلي سنة 1951 بداية مرحلة من الصراع الطويل الدرامي . فظهر من كتاباته سنة 1952 كتابه الشهير : «بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء»[1] . وكان هذا بمثابة اعلان الحرب المباشر ضد الرّجل الأبيض . وهكذا لا يشعر الإنسان بأنه قد كانت هناك فترة ما بين لحظة ميلاد فانون ولحظة ظهور هذا الكتاب ، وكأنه ولد ليشرع توّا في تأليف هذا الكتاب .

ومما لا شك فيه ان فانون عندما جاء الى الجزائر سنة 1953 وهي سنة زواجه وتعيينه مديرا للعلاج العقلي في مستشفى «البليدة جوانفيل» كان قد أحس لحظة وصوله لا بمهامه العلاجية وحدها ـ وان كان قد افرغ لها كل عنايته وحبه ـ وانما أحس أيضا بالانتماء الأصيل الى الناس المحيطين به وشعر بأن شيئا يربطه بهم . وكأنهم يقاسمونه بعض ما يضمره في قلبه وبعض ما يخفيه في طيات وجدانه .

وأول احساس له هو أن هؤلاء الناس على أرض الجزائر ، مثله تماما وان ابيضت جلودهم ، لأنهم مثله

---

1) Frantz Fanon : « Peau noire, masques blancs », Paris, le seuil 1952, réédité en 1961.

يعانون من الرجل الأبيض ويقاسون من مطامعه ويخضعون لنفسيته كرجل أبيض عندما يواجه هذا الرجل الأبيض أبناء من غير جلدته . وسبق فانون الى تحديد هذا المعنى الأستاذ «مانوني» في كتابه : «علم نفس الاستعمار» حيث أخذ في توضيح الجانب النفسي الذي يسيطر على عقلية الرجل الأروبي عند تعامله مع الرجال الافريقيين سواء كانوا من أبناء الشمال أو من أبناء الجنوب أو من أبناء الوسط .

وكان «مانوني» قد تعمق في دراسة الرجل الأبيض على أساس توضيح دوره في الحياة عند مخاطبة العقلية الافريقية بأشكالها وألوانها .. فهذه العقلية الافريقية تعاني من الاحساس بالسواد بمجرد الشروع في التعامل مع الرجل الأبيض .. هذا الرجل المتغطرس المتكبر الذي يحاول ان يبدو ظريفا ومجاملا ولكنه لا يبذل أدنى جهد حقيقي من أجل التخلص من احساسه النوعي بالامتياز ومن طمعه في أن يكون صاحب الحق الأوحد في الملكية حتى يكون ما يقدم للغير بمثابة الهبة والعطاء لا بمثابة الحق الطبيعي لأبناء الأرض نفسها . ولا يغفل فانون عن حقيقة أن «كل شكل من أشكال العنصرية انما

تحدده وتحتم وجوده مجموعة المركبات الثقافية والظروف التاريخية المحيطة»[1] .

والرجل الأبيض هنا هو المستغل المستعمر الذي يتلون احساسه ازاء الناس بمجرد شعوره امامهم بانه من غير بشرتهم وبأنه اذا لم يتميز بلون الجلد فهو مميز «بالمدنية» و «الذكاء» و «الحضارة» و «التقدم» و «التحرر» «والبعد عن الخرافة» أو باختصار بأنه هو سيد العالم . ويمكن أن نضرب مثلا لهذا بالرجل العادي الذي يعيش في انجلترا أو في فرنسا أو في ألمانيا أو في بلجيكا أو في سويسرا فهذا الرجل يروح ويجيء وسط أهله وأقاربه وابناء بلدته ويتعامل هنا وهناك ، وقد يلقى كل الألوان فوق ارض بلده، ولكن احساسه بالسيادة والامتياز والمدنية لا يظهر الا عندما يكون وجها لوجه أمام الافريقي خارج حدود بلاده ... فاذا به نفسية أخرى واذا به رسول محمل بأعباء التقدم والرخاء ازاء غيره ممن لم يصلوا الى شيء مما حققه وبلغه ووصل اليه .

وقد درس فانون الطب في جامعة ليون بفرنسا وكان نبوغه مرموقا بين زملائه وأساتذته وانخرط في كلية الطب

1) Caute D. Frantz Fanon, Paris, Seghers, 1970, (p. 24).

في الوقت الذي كان يتابع فيه دراسة الفلسفة . وفي نفس الوقت الذي كان يتابع فيه هذه الدراسة كان العالم من حوله يعيش فترة صراع حاد من جملة البلدان التي شهدته فرنسا والجزائر والفيتنام . وكانت هذه التيارات الواقعية من من جهة والفلسفية من جهة أخرى مما دفعت فانون الى التفكير في حل مشكلته ، مشكلة الزنوج الذين كانوا يخوضون كفاحا بفرنسا ، فكان كتابه «بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء» .ولما تخرج فانون من كلية الطب عام 1951 ، وبعد زيارته للمارتنيك عيّن بمستشفى الأمراض العقلية في البليدة بالجزائر . وهنا وجد فانون نفسه مرة أخرى في بلد يشبه بلده وبين شعب يعاني أفراده ما عاناه ، فكانت تجربته في اطار مهنته ودراسته لحالات المرض بعد أن اندلعت شرارة الثّورة الجزائرية حافزا متينا في استخلاصه نتائج الاستعباد والاضطهاد ، فانضم توا الى الثورة الجزائرية ليكون عضوا من أعضائها الناشطين .

والواقع أن الأضواء كانت قد سلطت على فانون قبل اندماجه في الثورة الجزائرية ، مباشرة بعد تأليفه كتاب «بشرة سوداء أقنعة بيضاء» عام 1952 ، وكان لهذا الكتاب ردود فعل كثيرة في الأوساط الغربية التي امتلأت

انفعالا وشحنة وأبت الا أن تصرح دون هوادة أن فانون لها ، ولا يمكنه بذلك أن يثور عليها .

على ان فانون قد حقق فيما بين 1952 و 1961 تطورا فكريا عاليا فقفز من التمرد على الزنوجية في كتابه «بشرة سوداء أقنعة بيضاء» الى ثورة الجزائر التحريرية التي سجلها في كتابه «علم اجتماع ثورة» أو «الثورة الجزائرية في عامها الخامس» الى صرخات وجهها للعالم الثالث وسجلها في كتابه «معذبو الأرض»[1] الذي أنهى تأليفه وهو على فراش الموت ، مقاسيا كل ما سببه له سرطان الدم الذي أصيب به من آلام وأوجاع .

ان مجيء فرانز فانون الى الجزائر قد اقترن باحساسه بأن العدو المستعمر هنا هو نفسه الرّجل الأبيض الذي يطارده في كل مكان ، وهو نفسه الذي يملأ أذنيه وقلبه بمدى التميز الذي يعلو به عليه . ولم يجد في الجزائر اخوته في الوضع الزنجي وانما وجد نفسه أمام العدو المستعمر الذي كان بالنسبة اليه شخصيا ، خالق الوضعية الزنجية ومؤسسها .

لذلك فقد أحل كل غضبته السوداء محل إحساس

---

1) Frantz Fanon : « Les damnés de la terre » Edition Maspéro. Paris 1961.

الجزائري بالوطنية وأصبح بين يوم وليلة مواطنا جزائريا يدين بحرية الجزائر واستقلالها لأنها حريته هو نفسه ازاء عدو موحد . وبهذا كان الهم المشترك عنده وعند الجزائريين ليس الوضعية الجنسية وانما الالتقاء عند خالق هذه الوضعية الزنجية في صورة جديدة وفي قناع جديد ، هو قناع الرجل المستعمر الغاصب . ولهذا كذلك فقد صدقت العبارة التي كتبها «سمويل رودي» في دراساته عن اليسار عام 1966 عندما قال : «لقد كان فانون في جوهر موقفه ينزج الصراع من أجل الاستقلال الجزائري بالثورة الاجتماعية»[1] .

وعلينا ان نلتفت هنا الى أمرين :

أولا : ان فانون لم يفهم حرب الجزائر الا من خلال الثورة الاجتماعية التي كان يؤمن بها كرجل أسود . فهذا الموقف هو الذي جعله يتآخى مع الجزائري في نقطة محددة وهي عداوه للرجل الأبيض ، بل لا يوجد في نظر فانون اختلاف بين العنصرية الاستعمارية وكل شكل من أشكال العنصرية الأخرى .

ثانيا : أن الثورة الاجتماعية عنده كانت لا تقف

1) (Samuel Rohdie) : « Libération et Violence en Algérie » - Page 86 -

عند حد تحرير الجزائر وحدها وانما تمتد لتغطي كل الحركات الثورية السوداء وراء الصحراء الكبرى وداخل أرض افريقيا السوداء .

ويمكن القول باختصار بأن تعذيب الجزائريين حل في نظر فانون محل بشرته السوداء .. فكان عذابهم على يد الرّجل الأبيض من نفس العذاب الذي أحس به من تعذيبهم له كرجل أسود . ذلك أن العذاب عندهم وعنده قد خلقته يد واحدة ، وبذلك كان اشتراك فانون في معالجة الجرحى الجزائريين تضميدا لجراحه السوداء .

ولكن فانون لا يأتي الى الجزائر كرجل أسود وحسب ولكنه يأتي اليها كأسود مثقف يعاني مشاكل جوهرية وهي الاحساس بمدى حقيقة وجود الرّجل المثقف بين أقوام من الجماهير غير المتعلمة وهي تصبو الى اصطناع أساليب العقل والحكمة الثورية في آن معا ، ازاء عدو قوي شديد البأس . فإما أن ينجح الرجل المثقف في أداء دوره كعامل مع الناس وللناس واما أن تنزل الهزيمة بفكرة الثقافة ذاتها كسلاح للشعب ، يواجه به الاعداء الطامعين في جهله وفي مرضه وضعفه وبالتالي في خنوعه . ولهذا فقد شعر فانون لأول مرّة بقضية الإنسان المثقف أمام الجماهير وأحس بأن من واجبه أن يضع صيغة جديدة تحكم

الأسلوب الوجودي للرّجل المثقف بين الجماهير التي لاحظ لها من ثقافة أو من معرفة ، وذلك بأن يحقق هذه الصيغة في سلوكه الشخصي .

والواقع ان فانون عانى معاناة شديدة من جراء هذا التفكير في وسيلة الرجل المثقف الى النفاذ والتعمق داخل نفسيات الجماهير العامة وداخل ضمائر المثقفين كرجال مسؤولين عن توجيه الشعوب لبلوغ درجة الأهلية للحياة الجادة العميقة . وكان فانون يعتقد بأن المثقفين اذا لم ينجحوا في خدمة القضايا على هذا المستوى الشعبي لم يستحقوا هذه التسمية وصاروا خونة للأمانة العقلية التي حملتها لهم البلاد . فاما أن يبلغ صوت المثقف آذان الجماهير واما ان يظل دائما في حكم الفاشل الذي لا يحقق رسالة ولا يخدم قضية ولا يفيد اخوته من قريب أو من بعيد .

وصرف فانون ذهنه لقضية ما اذا كان يمكن توصيل الثقافة كأسلوب عمل وحركة الى الناس ... والناس في وضع يكاد لا يعلو كثيرا على مستوى الأمية . وعلى هذا فإيمان الناس بشيء يجب أن يكون وليد إيمان المثقف نفسه بهذا الشيء . ومن هنا نجح فانون لأول مرة في اصطناع

اسلوب جديد في كتاباته يخدم قضية الاتصال بالجماهير ولا يؤذي حقيقة موقفه كمثقف يحرص على اسلوبه العلمي في التكوين والنشأة . فكتب فانون مقالته الفرنسية بطريقة جديدة لعل أحدا لم يلتفت اليها حتى الآن عند تفسير فانون ، فالغالبية العظمى من المؤلفين الذين تناولوا فانون تكلموا عنه كماركس مؤمن بالمنهجية الجدلية ، ولكن المدقق في عبارات فانون وفي اسلوبه وفي طريقة انتقائه للألفاظ والجمل وفي انتقالاته من عبارة الى عبارة يحس في التوّ بأن فانون قد تأثر بالمنهجية الظاهرية في الأسلوب .

وفلسفة الظاهريات قامت أول ما قامت على أساس أنها مذهب نفساني بحت ، ثم تحولت بعيدا عن علم النفس مع الابقاء على المنهجية النفسية داخل اطار وصفها للظواهر في أوائل هذا القرن وملأت اوربا بين سنة 1920 و 1930 ... وكان ظهورها على يد فيلسوف ألماني مات سنة 1938 عن 79 عاما وهو «ايدموند هوسرل» ويقول الدكتور الديدي في كتاب «الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة» : «ان الظاهرية عند هوسرل عبارة عن وصف وتحليل للأحداث التي تقع على هيئة تمثل وحكم ومعرفة أو بعبارة أخرى تقتصر الظاهرية على الوصف التحليلي لعمليات التمثل والحكم والمعرفة والوصف التحليلي الذي تقوم به

الظاهريات وهو مختلف عن كل اختصاصات علم النفس أو علم المنطق . فعلم النفس يدرس الأشياء من حيث تطورها ونموها ونشأتها الأولى وارتباط الوقائع بعضها ببعض ، وهذا هو ما نطلق عليه اسم التفسير العلمي والتناسلي . أما الانشغال بقوانين الفكر المثالية فن مهمة علم المنطق . ومعنى هذا أن المنطق يدرس عمليات الفكر من حيث هي نتائج مستخلصة من مقدمات سابقة عليها . والمنهج الظاهري يعادل العلوم المنطقية والنفسية بل والطبيعية أيضا في صدقها وسلامة نتائجها لأن أهم ما يتصف به المنهج الظاهري هو أنه يهدف الى أسلوب خاص بالشعور الذاتي يختفي منه كل شك كما يهدف الى أن يصبح علما من العلوم»[1] .

ويؤكد شعورنا بالارتباط الوثيق بين منهجية فانون والمنهجية الظاهرية ، ان فانون لم يلبث أن حضر محاضرات الفليسوف الفرنسي الظاهري «موريس ميرلوبونتي» سنة 1950 وما بعدها السوربون . فكان تأثره بالظاهرية بالواسطة . وإن كانت الواسطة هنا تتمثل في لقائه بميرلوبونتي الذي أضفى هو نفسه على الظاهرية تجديدات كثيرة . وقد ثبت

(1) د. عبد الفتاح الديدي : الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة ـ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1966 ـ ص : 21 .

حضور فرانز فانون محاضرات ميرلوبونتي من القوائم الرسمية التي ظهرت بالملحق الثالث من كتاب «علم الاجتماع عند فرانز فانون» لفليب لوكاس في ص 195 ...

ويجعلنا هذا الأمر نتعرف باهتمام على منهجية الظاهرية عند هوسرل حتى نكتشف مقابلاتها وتماثلاتها في اسلوب فانون وذلك لسبب بسيط وهو أن الظاهرية خالية من روح المذهب ولا يعني الانتماء الى الظاهرية من الناحية الفكرية اطلاقا ما يعرف عادة باسم التشيع المذهبي . ولا يعدو الاشتغال بالظاهرية أن يكون تعاونا على بذل مجهود مشترك لدى عدد من الباحثين الذين اكتمل لهم الاستعداد لمواصلة البحث من أجل تحقيق المثل الأعلى العلمي شيئا فشيئا .

ونحن نعتقد أن هذه النقطة ظلت خفية على كل من كتبوا عن فانون . فهم يتناولونه ويتناولون اصدقاءه من الوجوديين دون ان يفطنوا الى خصائص التعبير الظاهري وخصائص المنهجية الظاهرية التي اعتمد عليها من أجل الوصول الى التعريف بالشخصية الجزائرية تعريفا نفسيا ظاهريا في آن معا . ذلك أن المنهج الذي استخدمه فانون هو المنهج المتمسك بالعلم الوصفي. والظاهرية دراسة

وصفية خالصة للوثائق التي تمر بالفكر وتخطو من مجال المعرفة الملاحظة الى مجال الدراسة . ونجد هوسرل مؤسسها يعجل بتعريف الظاهريات بوصفها الواعية تجريبيا في اطار الطبيعة[1] . ولهذا يعتبر هذا البحث تفسيرا خاصا لفانون على ضوء منهجية في الأسلوب وتأثر بميرلوبونتي وبتكوينه العلمي النفسي المتخصص في الأمراض العصبية .

ومعنى هذا أن فانون أدرك بذكائه ان الوصف الظاهري هو أقرب أسلوب يخدم به فكره بين شعب قليل الثقافة وقليل الحيلة أمام عدو غاشم . فاستخدم هذا الوصف الظاهري استخداما واضحا لا لبس فيه .. ولو لم يكتب فانون ما كتبه من الأبحاث لخدمة القضية الجزائرية لتحولت كتاباته بطريقة آلية لتكون وسيلة نموذجية لتقريب ماهية المنهجية الظاهرية من اذهان من لا يعرفها . فالمنهجية الظاهرية تعتمد على الوصف الظاهري ، والوصف الظاهري يضع المواقف أقواسا ويسقطها اسقاطا على صفحة الوعي فيجعل هذه المواقف تتكلم من خلال تعبيره عنها .

وكان الوصف الظاهري عند فانون مبنيا على تقاليد

---

(1) المرجع السابق ص : 24 .

فكرية عالية ، ويمثل نمطا نموذجيا رفيعا من اضطراد العبارات واحدة بعد أخرى في سياق ظاهري واضح لنقل حقيقة الموقف ، ولترجمة الوضع القائم الى لغة يعتبرها العلماء وصفا ظاهريا لحقيقة اجتماعية قائمة ، وينظر اليها العامة بوصفها محركا ذا فاعلية لأذهان الناس فيما يتعلق بحقيقة كيان الثورة وقوامها . ذلك ان الظاهرية ليست فكرة واحدة تتكرر عند مجموعة من الناس ولكنها منهج علمي واحد يستخدم عند كل شخص يرى في نفسه انتماء الى الظاهرية . ولو لم يكن فانون طبيبا عقليا أو فيلسوفا ثوريا لكان مجرد كاتب ظاهري من الطراز الأول . وسيأتي يوم تقرأ فيه نماذج للمنهجية الفينومينولوجية من كتابات فانون كأبرع وأروع ما سطره قلم ظاهري .

نحن اتخذنا في هذا البحث ، الظاهرية كمحور رئيس للمنهجية التي اتبعها فانون في أعماله والواقع ان هذه النقطة تعتبر جوهرية جدا في البحث ، بل ومن بين جملة وجهات النظر التي تناول بها الكتاب افكار فانون ، نجد أن تفسير موقفه ابتداء من الظاهرية يلقي أضواء على تفكيره لا يمكن ان تتسنى لنا فرصة الوقوف على فكره بدونها .

ذلك أن تفسير فكر فانون على أساس صدوره عن المنهجية الفينومينولجبة يؤدي الى وضوح تطوره وإلى وضوح العديد من جوانبه .

ويكفي أن نفهم أن الإنتماء الأصيل لفانون الى مجموعة مفكري اليسار الفرنسيين كان مصدر الظاهرية لا اليسار في حدّ ذاته .. يكفي أن نعرف هذه الحقيقة لكي يتبين لنا الخيط الرئيسي في تفكير فانون .. ومعنى هذا بعبارة أخرى ان فانون عندما اتصل بميرلوبونتي وبسارتر كان شغفه الأكبر منصبا على متابعة المذهبية الظاهرية عند هذين المفكرين . واذا كان فانون قد تابع اليسار الفرنسي من خلال اعمال ميرلوبونتي وسارتر فقد كان هذا اضافيا وثانويا بالنسبة لاهتمامه الأصلي بهما ، بوصفهما المترجمين الفرنسيين للفكر الظاهري الألماني الحديث وهو الفكر الذي يهمه أصلا كمشتغل بالطب العقلي وكمتطلع مثل غيره من الأطباء العقليين الى النتائج التي استفاد منها الطب العقلي من المذهب الظاهري ، وكذلك كصاحب نظرية جديدة في العلاج النفسي ابتداء من «اعتبار المرض والجنون نتيجة للوضع السياسي للسكان «المحليين» . وهنا نقف لحظة لنشير الى أن فانون كان يرى أن «الاستعمار في حد ذاته هو السبب في عدد من الأمراض العقلية

التي نشأت في ظل الاستعمار كنوع من التكيف مع وضع شاذ غريب»[1] .

فهناك اتجاه جديد في الطب العقلي أو (البسيكياتري) يشيع اليوم بين أصحاب اتجاه مضاد للبسيكياتري عند «لانك» (Laing) وبعض الاطباء الجدد ، ويذهب هذا الاتجاه الى حد اعتبار الظروف السياسية مسؤولة عن ظهور بعض الأمراض العقلية كطريقة للتكيف الوظائفي معها بدون أن يكون المرض في هذه الحالة مرضا بالمعنى الصحيح للكلمة . وكان علم النفس الوظائفي قد أظهر الدور الوظيفي للوعي ذاته ولعدد من الأمراض كالهستيريا وغيرها مما يكون لها دور وظائفي محدد عند مواجهة خطر خارجي وعند مواجهة تهديد معين في المجتمع .

وكان فانون من أبرز من اتبع هذا الاتجاه ووضع أسسه التي تجسمت فيما بعد في صورة اتجاه كامل . واذا كان فانون قد استفاد من شيء في فكرته العلاجية للأمراض العقلية التي تنشأ بناء على احداث طارئة خارجية تهدد الشخص فيضطر الى الاستخدام الوظائفي للمرض

---

(1) محمد الميلي : «فرانز فانون والثورة الجزائرية» ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر 1973 .

العقلي من أجل مواجهة هذه الأخطار الطارئة ... اذا كان فانون قد استفاد من شيء في تأسيس اتجاهه ، فذلك نابع بغير شك من اهتمامه بالظاهرية بوضوح في كتاب « ديمولان » (De Moulin) عن الأمراض النفسية والأمراض العصبية (Nevrose et Psychose) ... فهذا الكتاب يمثل بحثا في الاتجاه العلاجي الجديد المبني على أسس مشتقة من صميم المذهب الظاهري الذي يستخدمه فانون ليكتب عن الجزائر وعن قضاياها وعن الشخصية الجزائرية والثورة . وربما كان من المستحسن ان نشير هنا الى نقطة هامة تتعلق بطبيعة الظاهرية ذاتها . فالظاهرية نفسها علم وترى في نفسها أنها علم . ولا يعني الانتماء الى الظاهرية انتماء الى مدرسة أو مذهب . ومن هذه النقطة بالذات يمكن فهم العلوم الظاهرية ، فهي لا تريد أن تفرض مفهومات بعينها بقدر ما أنها تعين كل باحث في حقل عمله على اكتشاف كل المؤديات الظاهرية لهذا العمل .

لذلك حاول فانون أن يكتب مؤلفاته جميعا كأنها صفحة واحدة من عمل واحد ، فهو في الواقع يواصل عملا فكريا لا ينقطع ، وان كان قد اعتاد التوقف من حين الى حين أمام ظواهر معينة من أجل التقاط دلالاتها

الخاصة بالظاهرة في كل موقف على حدة . وحاول فانون أن يخلق سياقا عاما لفكره ، لا ينتهي بانتهاء كتاب ولا يبدأ من جديد بكتابة مقال ولكنه يمضى في مؤلفاته جميعا كأنه يبسط عملا موحدا لا تجزئة فيه ولا تقطيع بين أنحائه وبين أفكاره وكأنه يخلق (بانوراما) كاملا أو منظورا كاملا لوضع فكري موحد يحاول به أن يستخلص ماهيات المواقف المختلفة التي تبرز كنه الشخصية الجزائرية المناضلة .

ونتتبع فكرة فانون لنسأل أنفسنا دوما عن هذا الرجل الذي اندمج اندماجا كليا في النضال الثوري للشعب الجزائري .

ففانون كان في باديء الأمر رجلا زنجيا . وكم كان الصراع مفتوحا عند فانون حين تطرقه الى الزنوجة في كتابه «بشرة سوداء أقنعة بيضاء» ، لقد كان على فانون ان يواجه عنصرية ذات اوجه مختلفة في الشارع وفي الحافلات وفي الكليات الجامعية ... آلاف من الأوضاع التي مست أحاسيس فانون العميقة واثارت عداءه للرجل الأبيض ، للرجل الأوربي العنصري المستغل ، وامام هذا الجدار المنيع الذي لم يعترف فيه فانون بأي أساس اجتماعي واقتصادي ، يقرر ان يلقي «صراخ الزنجي»

ويستوعب لنفسه هذه المرة بتلك الأناشيد والأشعار التي ما فتىء ينطق بها الزنوج أمام الرّجل الأبيض .

وكان فانون رجلا فرنسيا .. فهو لم يكن زنجيا فحسب ككل الزنوج المستعمرين ولم يكن رجلا فرنسيا كالرجال الفرنسيين بافريقيا الغربية أو افريقيا الاستوائية . لقد كان فانون مارتينيكيا ، أي أنه كان مواطنا بأتم معنى الكلمة منتميا الى اقليم «فرنسي» وهذه الوضعية كفيلة لوحدها بأن تدعم أكثر فأكثر طابع الجرح الكبير لسواد لونه ، فهو في الوقت نفسه «فرنسي» ازاء زنوج افريقيا المستعمرين و «زنجي» أي أنه في موضع أدنى ازاء «الفرنسيين البيض» .

وهكذا وباتصال فانون المباشر مع الواقع العنصري لعالم البيض سيحس ويرى ويدرك أنه «مخالف» للصورة التي تبنتها طفولته وتربيته السابقة ، وهو الاتصال الذي سيزيل على مدى السنوات الكثيرة جميع هذه الأوهام ليرسم خلالها فانون من «بشرة سوداء أقنعة بيضاء» الى «معذبو الأرض» ايديولوجية مادية للتاريخ ...

الفصل الثاني

الدلالات العامة للشخصية الجزائرية في كتابات فانون وانعكاساتها في الثورة الجزائرية

نحن الآن أمام محاولة من أجل استكشاف ملامح الشخصية الجزائرية كما رسمها فرانز فانون بقلمه في مجموع الكتب التي تركها .

وقد اردنا من وراء هذا البحث أن نستلهم الطريقة التي ابتكرها فانون وهو يحاول أن يركز فكره وقلمه على الشخصية الجزائرية المناضلة وقت الثورة من أجل تحديد معالمها ، باعتبار ان هذه الشخصية شخصية مؤقتة انبثقت بفعل البيئة وبفعل الموقف الخارجي الذي كان يتهددها قبل الاستقلال ... ولا شك ان الشخصية تمثل بناء سواء لدى الشخص او لدى مجموعة الناس الذين يتكون منهم الشعب أو الأمة . واذا صح هذا فقد تألف لدى الشعب الجزائري بناء جديد من الشخصية لمواجهة الاستعمار بصوره الغاشمة أثناء فترة الثورة ، وبالتبعية تألف أيضا لدى الشخص الجزائري نفسه شخصية جديدة أو بمعنى

اصح بناء جديد من الشخصية لمواجهة المواقف التي كان يجد نفسه مضطرا الى اتخاذ سلوك معين ازاءها .

ودار بخلدنا أن نلجأ الى أعمال فانون بوصفها شاهدا واقعيا على كل ما كان يدور من أحداث خلال الثورة ـ واتجهنا الى هذه المؤلفات لنستخلص منها البناء الذي اهتمت به الشخصية الجزائرية لمواجهة النظام وضروراته اثناء الثّورة ـ وآثرنا ان نتتبع أعمال فانون لاستخراج صورة كاملة للشخصية الجزائرية التي تجلت وقت النظام الثوري في كل التصرفات وفي كل انواع السلوك التي بدرت منه أثناء النضال الثوري . .

وأول ما نسجله في هذا الصدد هو أن الشخصية تكاد تأخذ لنفسها صورة معنوية موحدة وتكاد تكون بناء قائما بذاته . وهذه الشخصية هي في مجموعها البناء الذي يواجه به الجزائري : مجموعات من الأبنية الحضارية والثقافية والسياسية التي يحاول العدو بشتى الطرق أن يفرضها عليه .. فكأن الجزائري أو الشعب الجزائري يضع أمام وجهه بناء شخصية كدرع يتقي به كل هذه الأبنية الخارجية التي يحاول المستعمر أن يفرضها عليه فرضا .

فما هو هذا البناء الذي يتوخى به الجزائري ليقابل

جملة الأحداث الخارجية وما هي ملامحه وصفاته وما هي طبيعته ؟..

نحن نعتقد منذ البداية ان فانون تلقى كل انطباعات النضال الثوري الجزائري بروح شفافة ومستقرة لانه منذ البداية كما قررنا في مقدمة هذا البحث لم يكن ينتمي الى اليسار الا من ثلاثة أوجه :

ـ أولا ، ان اليسار بعد الحرب العالمية الثانية أصبح يمثل لدى الكثيرين من المضطهدين في العالم الباب الوحيد للخلاص من نير الاستعمار ومن الظلم الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية .

ـ ثانيا ، ان ايديولوجية فانون اليسارية كانت تمثل قوة المثقف المناضل الذي لا يستطيع أن يواجه الاستعمار بالحرب فيواجهه بالعداء وحسب ذلك انعكاسا لا لوضعية الظلم الاجتماعي وحده بل هو للظلم العنصري أيضا الذي كان فانون يعاني منه الكثير .

ـ ثالثا ، ان فانون كان حريصا على اتباع منهجية فينومينولوجية ولم يكن يتيسر له ان يتعرف على هذا المنهج الا من خلال الفرنسيين الماركسيين أنفسهم ممن كانوا يقومون بالتبشير بهذه المناهج الظاهرية الجديدة . ولم يعرفها

المثقفون الغربيون الا من خلال كتاباته . ومن هؤلاء «ميرلوبونتي» الذي خرج في النهاية على فكرة الجدل الماركسي وحولها الى ظاهرية جديدة .

فاذا سلمنا بهذه الفروض لم يكن أمامنا سوى أن نرفض مبدئيا فكرة ان فرانز فانون قدم الى الثورة الجزائرية مفهوما كاملا مسبقا عن طبيعة النضال من الناحية الثورية اليسارية ، وان كان قد تأثر بها تأثرا كبيرا . ومعنى هذا بعبارة أخرى ان فانون كان قد اندمج في هذه الأفكار وعرفها ولكن لا يمكن القول بأنه كان ملتزما بها بالصورة المطلوبة من رجال اليسار .

ودليلنا على هذا أمران :

1) ان فانون طبق المنهج الظاهري تطبيقا رائعا من أجل استخلاص ملامح الشخصية الجزائرية في مؤلفاته ومن اجل توضيح دورها في الثورة وهو ما لم يكن يمكن ان يحدث لو كان فكر فانون لا يزال يدور في فلك منهجية الجدل الماركسي لمدى التعارض بين المنهجين .

2) ان انخراط فانون في صفوف الثورة الجزائرية انما كان سعيا وراء متابعة حركة هذه الثورة خطوة بخطوة ، وما كان من السهل على فانون ان يسجل خطراته عن

تطور الثورة الجزائرية بهذه الروح المتعاطفة مع الشخصية الجزائرية في بنائها الحضاري المتكامل الذي واجهت به المستعمر ... أقول ما كان يسهل على فانون ان يتعاطف مع هذه الشخصية الغارقة في الغيبيات كعوامل ديناميكية محركة ، والغارقة في التقاليد والملامح البيئة الخاصة ، ما كان فانون يتعاطف مع الشخصية الجزائرية بهذه الصورة النضالية الفريدة التي يتسم بها النضال العربي الاسلامي في وجه العدو الكافر وهو يبغي التسلط والسيادة .

فعامل الدين كان بارزا لدى الشخصية الجزائرية وعامل القومية كان واضحا وعامل الشرف الأنثوي كان جليا بيّنا وعامل الايمان بالآخرة وبالشهادة في سبيل الله كان ثابتا في كل خطوة يمر بها المسلم المقاتل ، بل لقد كانت الثورة الجزائرية حربا اسلامية ضد مستعمر يريد أول ما يريد ان يقضي على الدين وعلى الشرف العربيين . فاذا كان الجزائري قد التزم بكل هذا فهو يلتزم به بطبيعة الحال لأنه نابع من تاريخه وقوميته ودينه ووضعيته كعربي مسلم ... ولا يمكن أن يدخل في هذه « المعميات » الثورية ان صح هذا التعبير (لأنها لا يمكن الا أن تكون كذلك من وجهة النظر الثورية الماركسية) بوصفه ماركسيا

من حيث العقائدية لأن أبسط ملامح النضال عند الطرفين كانت ستصبح متباعدة تباعدا كبيرا فيما بينها .

ولا شك ان قضية عدم الانتماء الماركسي عند فانون تهمنا هنا بصفة جادة لأنها تبيح لنا أن نفترض في شخصية فرانز فانون انه كان علميا في نظريته الاجتماعية وان منظوره الاجتماعي كان يخضع كليا لمقومات علمية تشهد لكتاباته بالاصالة في ميدان علم الاجتماع الحديث ... هذا فضلا عن منهجية جديدة اقتبسها من الفلسفة الظاهرية لكي يكون منهجه في استقصاء الوقائع والظواهر الاجتماعية داخل اطار التحرك الثوري الجزائري .

وقد حاولنا أن نؤكد من جانبنا هذه الأسس العامة التي يتبعها في تخطيط هذا البحث حتى نلقى بدورنا أضواء ساطعة على أعمال فانون التي اتخذناها أرضية نتحرك عليها في بحثنا .

واذا تتبعنا اعمال فانون فسنجد أنه يمضي في في سياق موحد بلا تقطع ولكن مع عدد من التوقفات التي تناسب طبيعة استشفاف واستخلاص الماهيات والدلالات المعبرة عن حقيقة الشخصية الجزائرية . بل ان فانون كان يدرك بوضوح أن عمله هنا فيما يتعلق بوصف التجربة الجزائرية لا يؤدي الا الى شيء واحد وهو ابراز الشخصية

الجزائرية ، ويدرك هو نفسه هذه الحقيقة ادراكا لا شك فيه لأنه كان يعتقد كما يقول هو نفسه في كتاب «علم اجتماع الثورة» أن «الموقف الاستعماري يجعل الأشياء تأخذ طابعا خاصا ، وعلى أولئك الذين يحاولون ان يستخلصوا الشخصية الجزائرية الأساسية أو يعمدون الى معرفة نفسية المواطن الأصلي ... على أولئك جميعا ان يفهموا فهما واضحا بأن ذلك غرور لا يمكن تحقيقه في صورة علمية واقعية أثناء فترة الصراع من أجل التحرير . ومما لا شك فيه أن الاخصائيين في التربية الصحية الأساسية ، عليهم ان يفكروا بامعان في هذه المواقف الجديدة التي تتفجر أو التي تلوح خلال صراع التحرير الوطني لشعب متخلف . ومن ذلك الوقت الذي يتطلع فيه جسم الأمة الى ان يخلق لنفسه طريقة ديناميكية متماسكة من أجل الحياة ، يصبح كل فعل من الأفعال ممكنا ، وبالتالي فلا يمكن في هذه اللحظات المليئة بالصراع أن نستكشف نمطا موحدا للشخصية الجزائرية وانما سنجد ان هذه الشخصية الجزائرية كما تتمثل في عهد الثورة وحرب التحرير قد سمحت لنفسها بالقيام بأي تصرف محتمل الوقوع من أجل بلوغ الهدف النهائي»[1] .

---

(1) الدراسة الاجتماعية للثورة ـ المرجع السابق (ص 134 ـ 135)

فالشخصية الجزائرية لا تبحث عن التعبير عن شخصيتها من خلال السلوك الظاهر وقت الحرب وانما تسعى الشخصية الجزائرية هنا الى تحقيق هدف واحد أياً يكن نوع السلوك الذي يتطلبه ويستلزمه ذلك الهدف . وهذا بطبيعة الحال يختلف عن الشخصية الأساسية للجزائري كما تجلت بعد ذلك في فترة السلام عقب الاستقلال .

فالشخصية الجزائرية كما تجلت في اعمال فانون ليست شخصية عادية محكومة بالأوضاع الطبيعية لحياة الكائن البشري . وبالتالي لا يمكن أن يكون السلوك الذي تؤديه هذه الشخصية مرتبطا ارتباطا عضويا بحقيقة الشخصية التي تؤدي ذلك السلوك لأنها قد تقبل أداء سلوك استثنائي بقصد تحقيق الهدف العام الذي ارتضته الثورة لنفسها . وقد يستلزم هذا الهدف مئات وآلاف أنواع من السلوك التي قد لا تصدر مباشرة عن الشخصية تعبيرا عن حقيقتها ووضعيتها ولكنها تقبلها بدافع عملي للوصول الى الغرض المطلوب .

وقد حاول فانون من جانبه أن يسقط اضواء على جانب من أوجه الحياة الجزائرية اثناء حرب التحرير من أجل ابراز وضعية خاصة من أوضاع هذه الشخصية

وتقبلها ككل من حيث هي جزء من رسالة المواطن الجزائري في الحياة ، تخليصا لأرضه من أيدي المستعمر وتحريرا لجنسه العربي من الاغتصاب ومن عبودية الاستعمار .

ويمكن ان نتابع وصف فانون لشخصية الجزائري مثلا في حالة معاملاته الطبية . فهو يشير مثلا الى أن «علم الطب والقلق على الصحة العامة كان من شأنهما أن يفرضا دائما فرضا على الشعب من جانب القوى الحاكمة المحتلة . والواقع أن الظروف المادية والنفسية في الموقف الاستعماري لا يمكن أن تتحقق بالفعل من أجل تعليم الصحة العامة أو من أجل تلقين أفكار متعلقة بالوسائل الوبائية»[1] .

ويتشابه في الموقف الاستعماري في نظر المواطن كل سلوك ، مثل الذهاب لاستشارة الطبيب أو الموظف الإداري أو قائد الحرس أو رئيس البلدية ، ذلك أن عدم المبالاة حيال المجتمع الاستعماري وعدم الاطمئنان والثقة بكل ممثلي السلطة يقترنان دائما بعدم مبالاة وعدم ثقة آليين تقريبا ازاء الأشياء الشديدة الضرورية والفائدة للشعب .

فاذا كانت السلطات الفرنسية قد أعلنت منذ الشهور

---

(1) المرجع السابق (ص129) .

الأولى لحرب التحرير ضرورة حضر بيع مضادات الحيوية والأثير والكحول والتطعيم المضاد للتيتانوس ... وإذا كان الجزائري نفسه يرغب في أن يحصل على بعض هذه الأدوية ويرى أنه يجب عليه في هذه الحالة أن يعطي الصيدلي المعلومات عن هويته الشخصية وعن هوية المريض ... في هذه اللحظة يحدث تصادم بين الشعب الجزائري وبين السلطات . فالشعب الجزائري يقرر عدم انتظار علاجه عن طريق السلطات ، كما يقرر الحاكم الاستعماري منع بيع الأدوية والأدوات الجراحية. ومعنى هذا أنه في اللحظة التي يبدي فيها الجزائري رغبته في الحياة وفي أن يرعى نفسه ، تحكم عليه القوى الغاصبة المحتلة بالاحتضار البشع . ويعني هذا بطبيعة الحال أن الصدام بين الشخصية الجزائرية وبين السلطات الغاصبة كان يدور حول عملية اخضاع المواطن لسلوك معين ولآداب ولياقات معينة يرفضها المواطن الأصلي منذ البداية ولا يرغب في أن تكون عملية اذلال واكراه لشخصيته .

ومثل هذا الموقف الاستعماري مثل كل المواقف التي عاشها الشعب الجزائري اثناء حرب التحرير . فهي كلها استثنائية تقريبا وسلوكه من خلالها سلوك مؤقت لا يعبر عن الشخصية الجزائرية فقط ولكنه يعبر أيضا عن طاقات

هذه الشخصية وعن أسلوبها في التكيف مع جملة المواقف الاستثنائية المستمرة .

فالشخصية الجزائرية تظهر لنا بوضوح من خلال هذا الموقف الطبي الصحي العام لأن الشخصية الجزائرية عانت عناء مرا من وفاة المجاهدين المحتمين بدورهم واللاجئين الى مساكنهم سرا ، ولكنها أبت الخضوع لأحكام المستعمر ، وأبت على نفسها الا أن تحتمل الظروف القاسية حتى تمكنت من استخدام أسلوب في التحايل من أجل مواجهة الموقف والاعتماد على طاقات جديدة في التفكير والمواجهة والتكيف مثل الذهاب الى حد الاعتماد على الأجانب لتوسطهم في الحصول على الدواء ، مقابل بعض المنافع المغرية .

وهكذا تتجلى الشخصية الجزائرية في أوضح صورة من حيث استخدام أساليب جديدة مبتكرة لمواجهة كل موقف واستخراج حيل استثنائية للتعبير عن طاقاتها في مواجهة الأخطار وبأساليب ذكية مبتكرة . فيها الحيلة والدهاء ، ولكن فيها أيضا احتمال الألم والعناء من أجل اخفاء الحركات السرية اللازمة لسير حرب التحرير في طرقها الجديدة . واذا اعتبرنا الذكاء هو المرونة والحركية للتكيف مع الأوضاع ، فمعنى هذا أن الشخصية الجزائرية كانت

تتمتع بصفات خاصة مثل الصبر والكتمان ، والعناء واحتمال الألم ولكنها تتميز أيضا وعلى الخصوص بقدر من الذكاء لمواجهة الموقف والتكيف معه بسلوك ذكي .

تلك هي الشخصية الجزائرية التي يعبر عنها فانون في مؤلفاته .. انها لم تكن مجرد شخصية جزائرية بالمعنى الفكري أو الايديولوجي ، بل هي الشخصية الجزائرية بالمعنى النفسي وبالمعنى المرتبط بدلالات الطب النفسي ، لأن فانون كان طبيبا للأمراض العقلية وكلامه عن الشخصية الجزائرية وان كان مصبوغا في قالب أدبي فهو يعبر بغير أدنى شك عن دراسة نفسية من الدرجة الأولى لهذه الشخصية فضلا عن أن استخدامه للمنهج الظاهري كان يستهدف :

1) ـ استخدام الأسلوب الوصفي .
2) ـ استخراج الدلالات المعبرة عن الملامح الأصلية .
3) ـ تحديد الملامح النفسية وتشخيص الحالات .

فالجزائري أمام الظلم والاضطهاد الذي ما فتىء يتعرض له بكل ألوانه ، وامام التحقير بشخصيته من جانب الاستعمار في أشكال مختلفة منذ ما يزيد عن قرن وربع قرن وجد نفسه مضطرا الى أن يصرح في تعبير واضح ملموس وأن يعبر عن حقيقة تاريخية وهي أن الحل الوحيد

يتمثل في تغيير الموقف فدفعته تياراته الداخلية بشكل تلقائي الى أن «يكتسي لباس العنف ، ويقتنع أخيرا أن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يستخدمها اليوم بقصد اعطاء معنى لموته هي الحصول على بندقية والانضمام الى جيش التحرير الوطني .. فالحياة تحت السيطرة قد فقدت معناها منذ أمد مديد»[1] .

ومعلوم أن هذا القرار يعد قرارا حاسما اخرجته تلك التيارات العميقة التي حافظت عليها الشخصية الجزائرية مدة طويلة والتي لم ترد أن تظهرها بكامل حدتها قبل هذا الأوان لأنها كانت تعلم وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى أن كل دعوة لمقاومة مسلحة انما هي دعوة خطيرة وعملية صعبة الوصول نظرا لما بلغته الآلة العسكرية الاستعمارية من قوة عظمى جعلتها مسيطرة على الوضع بأتم المعنى .

آنذاك لم يبق للشعب الجزائري من وسيلة غير التمسك بشخصيته ، أي بثقافته العربية الاسلامية وتقاليده وعاداته... هذه التقاليد وهذه العادات التي كانت تظهر في صور الثقافة التقليدية المتمثلة في حفظ القرآن والتردد على المعاهد الدينية والمدارس الحرة وحتى الزوايا الطرقية الكثيرة .

---

(1) المرجع السابق ص9 .

وهنا نصل الى ما نود أن نبرزه في هذه الدراسة وهو أنه فعلا قد استخدمت هذه الشخصية قدراتها الكاملة ابان حرب التحرير ونشأ فوق الأرض الجزائرية مجتمع جديد ... فكما يقول فانون في مقدمة كتابه : «علم اجتماع ثورة» : «رجال الجزائر ونساؤها لا يشبهون اليوم رجال ونساء عام 1830 . فالجزائر القديمة قد انتهت . ان هذا الدم البريء الذي يتفجر من الشرايين المتنكرة فوق التراب الوطني قد رفع الى الوجود انسانية جديدة» أو كما قال في الصفحة 12 من نفس الكتاب : «... قد تبنت الأمة الجزائرية اليوم شخصية استثنائية أخرى لم تعد مرسومة في آفاق خيالية ولم تعد وليدة خيالات غامضة قد اعتجنتها الخرافات والأوهام . ذلك أنها قلب الجزائري الجديد ذاته ، وهو رجل ذو طبيعة جديدة وأبعاد مستحدثة لوجوده ...» .

وهكذا تضطر فرنسا بغتة ـ بعد أن أفرغت جهدها الجهيد من أجل المحافظة الذاتية على الصورة المحتقرة التي كان الجزائري يرى نفسه فيها من قبل ـ تضطر بغتة لقبول هذه الشخصية الجديدة المفاجئة ولتحمل اعباء هذا الوعي الذي ما فتيء ينتشر في الجبال والمدن . فالجزائري عند تناوله البندقية قد فسر الخطأ الفادح الذي ارتكبته فرنسا

عندما لخصت وصف الجزائري برمز «الحايك الأبيض» ونداءات «يا ولد» التي كانت توجهها لأبناء الجزائر الصغار ، حاملي القفف في الأسواق . وبالفعل فان هذا الحايك الذي يعدّ عنصرا من العناصر التقليدية الملبسية الجزائرية سيصبح مركز الثقل في معركة ضخمة تعبىء فيها قوات الاحتلال أكثر مصادر ثروتها قوة وتنوعا .

ذلك أن الاستعماريين المكلفين بتحطيم اصالة الشعب وتفتيت صور الوجود المحرك للشخصية الجزائرية يوجهون أقصى جهودهم على لبس الحايك الذي صار ينظر اليه خلال معركة التحرير كرمز لشخصية المرأة الجزائرية وكيانها وكرمز للشرف العربي الذي لا ينبغي أن يمسه المستعمر مهما كانت سطوته وقوته .

وهكذا صاروا يحاولون الغاءه بطريقة علمية نفسية مستخدمين كل ما لديهم من وسائل بقصد اشعار الجزائرية أنها «مستذلة» وانها قد حولها الرجل الجزائري الى مادة جامدة قد فقدت حظوتها وكيانها بل حتى انسانيتها . وتصف الإدارة الاستعمارية ، متجهة الى المرأة ، تصرف الرجل الجزائري « السادي والمتوحش » محاولة بذلك دفع المرأة الجزائرية الى تحويل عقيدتها واخضاعها للقيم الأجنبية

وانتزاعها من كيانها .. وهذا يشكل في الوقت نفسه السيطرة الحقيقية على الرّجل وامتلاك الوسائل العملية الفعالة لتخريب الشخصية الجزائرية .

لم تكن فرنسا تجهل ان المرأة الجزائرية هي عماد الثورة والثقافة في آن معا وان فقد شخصيتها وخضوعها للتصرفات الأجنبية وتبديل عقلياتها من شأنه أن يقلل من الحماس الثوري وأن يحطم الحضارة الجزائرية الأصيلة بل ويؤدي الى الاستسلام للعدو الباغي . فقد قوت فرنسا ايمانها خلال المعركة في المرأة الجزائرية بوصفها عنصرا من عناصر التأييد لنفاذ الحضارة الغربية الى المجتمع الأصلي وللقضاء بالتالي على كل بوادر الشخصية الجزائرية ، وكان الأمل ينبعث لديها مع كل امرأة جزائرية جديدة تتخلص من الحايك . فكأنما كان كل جسد يتحرر من قيد الحايك التقليدي يعبر عن أن الجزائر تبدأ في فقد شخصيتها «المتعصبة» وتقبل اغتصاب الاحتلال لها .

وفي هذا المجال يقول فانون في مؤلفه «الجزائر ترفع نقابها» : « ... تحدد الادارة الاستعمارية مذهبا سياسيا دقيقا على نحو : اذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في سياقه المتلاحم وفي مقدرته على المقاومة والصمود ،

فينبغي أولا أن نستولي على المرأة من وراء حجابها حيث تختفي ، وفي المنازل حيث يخفيها الرجل» .

بهذا الحايك الذي يتكلم عنه فانون طويلا حيث جعله فرس الحلبة في معركة التحرير والمحدد للمجتمع الجزائري الخاضع للاستعمار ، بين ما كان يسعى اليه مسؤولوا الادارة الفرنسية بالجزائر من مساعي لتحطيم اصالة الشعب والقضاء على كل ما من شأنه أن يذكر من قريب أو بعيد بالواقع القومي . على أن الرجال الجزائريين بدورهم كانوا يتعرضون لأبشع انتقادات زملائهم الأوروبيين أو رؤسائهم ازاء تصرفاتهم مع زوجاتهم ولم يكن هناك : «... أي عامل أروبي لم ير نفسه مدفوعا في اطار علاقاته الشخصية في الورشة أو في المعمل أو في المكتب ، الى طرح الأسئلة الخاصة في المناسبات العامة على الجزائري ، على نحو : «هل امرأتك محجبة ؟ لماذا لا تقرر العيش على الطريقة الأوروبية ؟ لماذا لا تصحب زوجتك الى السينما أو المقهى؟» .

هذه حالة من الحالات التي تبينها لنا مأساة الوضع الاستعماري والتي تقابل النظامين وجها لوجه ... تقابل الشعب الخاضع للاستعمار بكل مخصصات وجوده وتيارات شخصيته وخصائص سلوكه بأفعى استعمارية تسعى

الى تحطيم هذه البنية التقليدية التي لا تعد سوى مظهر من مظاهر الشخصية الوطنية .

امثال هذه الأوضاع الحرجة التي ما فتىء يلزمها الاستعمار على الجزائري وأمثال هذه الحروب التي شنها على التصرفات والعادات الوطنية كان من نتيجتها أن أدت الى رد فعل معاكس تماما ، اذ تزايد تمسك الشعب بها والانغلاق عليها كنوع من المقاومة ضد المحتل الباغي والرفض المطلق لجميع ادعاءاته وأساليبه .

ان هذا الصراع الحاد الذي فرضه المستعمر على نفسية الجزائري والجزائرية كان لابد أن تحظى خلاله قوى الاحتلال بطبيعة الحال ببعض النتائج ، عندما حملت على المحيط التقليدي الجزائري ومن ضمنه ظاهرة الحايك لدى المرأة الجزائرية أقصى حملاتها النفسية .

يقول فانون : «ان النساء الخاضعات للتجربة يمضين وسط المجتمع الأوروبي الجزائري بوجوههن العارية واجسامهن المتحررة كعملة مالية صعبة .. فكان الأوروبيون المتحمسون والمنتصرون بفعل هذا النوع من التعديل الذي يغمرهم يبرزون ظواهر نفسية أشبه ما تكون بالظواهر النفسية التي تقترن بعملية التحول الديني ...» .

تلك المرأة الجزائرية التي ترى ولا ترى كانت تحبط رجل الاستعمار وتخيفه لعدم وجود تقابل متبادل ، فهي لا تذعن ولا تعطي نفسها ولا تستسلم . وحتى النساء الجزائريات غير المحجبات كن يحققن وجودهن كغربيات كاملات بسرعة مذهلة تشعر النساء الأوروبيات ازاءهن بنوع من الحرج والتخوف . مما جعل النساء الأوروبيات اللواتي كن حسب رأيهن صاحبات الموقف في توجيه التطور وتصحيح أخطاء السفور يصرحن ـ وقد نافستهن المرأة الجزائرية من حيث اللطافة والأناقة والجرأة : «ان أولئك السيدات غير المحجبات هن أيضا لا أخلاقيات بل وسفيهات» .

ويعيد فانون إلى الأذهان تاريخ الغزو الفرنسي في الجزائر المتعلق بالحملات المفاجئة للقوات في القرى ومصادرة الثروات والممتلكات واغتصاب النساء ونهب البلاد ليبين لنا نفسية رجل الاستعمار المملوءة بالسلوك الاجرامي العنيف الذي طالما تذهب ضحيته نساء جزائريات يتعرضن لعمليات فض البكارة .. الشيء الذي يؤثر في نفوسهن أقصى تأثير . وهذه القسوة وذلك التمسك والاغتصاب العنيف يوضحه لنا فانون لنستنتج الوضع المتخوف لدى المرأة الجزائرية ازاء رجل الاستعمار وقلقها الدائم كلما تم لقاء لها مع أروبي .

«في الحلم ـ يقول فرانز فانون ـ تصرخ المرأة كضحية وتدافع عن نفسها كأنثى الإبل لكونها ، بلا أخطار وبلا وعي ، تتعرض للهزيمة من طرف الأروبي وتغلب على أمرها وقد تمزقت تمزيقا»[1] .

على ان عدائية الأروبي وقسوته سيؤثران الكثير على أخلاق المرأة الجزائرية حتى أن خجلها وتحفظها سيتحول بصورة ملموسة يصورها فانون تصويرا ظاهريا وتصبح المرأة الجزائرية متصفة بالنفاق والفسق أو بعبارة أخرى شخصية نمفاوية حقيقية أي ذات شراهة جنسية ملحوظة .

ويسجل فانون هذه التيارات المنبعثة في نفسية المواطن الخاضع للاستعمار وردود أفعاله ازاء ذلك العنف فيؤكد «... أن المواطن المستغل يقوم برد فعل على نحو عنيف جدا أمام الالحاح المستمر من قبل المستعمر الأجنبي على هذا القطاع أو ذاك من قطاعات التقاليد ...» ومثال لرد الفعل المعاكس هذا يعطيه فانون بكيفية جلية حينما يتكلم عن خاصية الحايك عند المرأة الجزائرية اذ يقول : «... لم يلبث المواطن الخاضع للاستعمار ان قابل الاعتداء

---

(1) المرجع السابق .

الاستعماري حول مشكلة الحجاب بالتمسك بالحجاب ...».
وظاهرة ردود الأفعال هذه عند الجزائري يتطرق اليها الكاتب محمد الميلي حينما يتكلم عن مقاومة الشعب الجزائري لمحاولات طمس شخصيته من طرف الاستعمار : «... تؤدي هذه الحرب المطلقة التي شنها الاستعمار على الاسلام في الجزائر الى ردّ فعل معاكس تماما : تمسك الشعب بالاسلام والعربية واللجوء الى أسلوب القنفذ في الدفاع ، أي الانغلاق والتقوقع حتى لا يجد الاستعمار منفذا للنيل من الشخصية الوطنية»(1) .

هذا اذن طابع نفساني يندرج ضمن السلوك العام للجزائري برز بحدة خلال حرب التحرير وهو طابع لاقى صعوبات كثيرة اذ كان المجتمع الجزائري يميل طيلة فترة الاحتلال الى تحاشي رجل الاستعمار .. ذلك أن عناد هذا الأخير واصراره عن مشروعه بشأن القضاء على مختلف هذه الانعكاسات الثورية والسلوك التقليدي وتحويلها الى عامل فعال في مجال الهدم الحضاري ، أدت الى تقوية أنواع هذا السلوك التقليدي التي وان كانت تميزها

---

(1) محمد الميلي : المرجع السابق ـ ص 48 .

بعض السلبيات الا أنها كانت تعتبر ايجابيات في استراتيجية المقاومة ضد المستعمر الغازي.

جميع هذه القرارات المطبقة لا تمثل في الواقع سوى قدرات الشخصية وطاقاتها ازاء ظهور الخطر الخارجي وهي قدرات عمد الجزائري إلى تبنيها كوسيلة من وسائل المقاومة.. وثمة طاقات أخرى تخرجها الشخصية الجزائرية الى الوجود تتمثل في تلك التصرفات التلقائية التي تمسك بها الجزائري بحكم الغريزة لمواجهة هذه الأخطار الخارجية ... تصرفات بسيطة وبعيدة عن أي تأثير أجنبي حاول فرانز فانون التعبير عنها عندما يقول في الصفحة 32 من كتابه «علم اجتماع ثورة» «.... ينبغي دائما أن نستحضر في اذهاننا هذه الحقيقة ، وهي أن المرأة الجزائرية التي شاركت في الثورة والتزمت بها ، قد تعلمت بالغريزة دورها كامرأة وحيدة في الطريق وفي رسالتها الثورية ـ فالمرأة الجزائرية ليست بالشرطي السري وانما اعتادت أن تخرج الى الطريق العام بدون تعلم وبدون تاريخ وهي تحمل في حقيبة يدها ثلاث قنابل أو تقريرا عن النشاط محفوظا بمكان خاص بين طيات ثدييها ـ ولم تكن تعرف ذلك الاحساس بأنها تلعب دورا مقروءا مئات المرات في الروايات ، أو مشاهدا

في السينما . ولم يكن لديها ذلك الشعور بتقليد الغير الذي نشعر به عند المرأة الغربية ...» .

ويتبدى لنا هنا أن الدور الذي قام به الجزائري لا يتمثل في ابراز شخصية معروفة ومألوفة ألف مرّة في الخيال أو في القصص بل ذلك نوع من الميلاد الحقيقي النقي بلا اعداد ولا تمهيد .

وهكذا نرى بسرعة استراتيجية الاستعمار في خلق التحلل داخل المجتمع الجزائري وعلى مستوى الأفراد ونرى أن هذه الاستراتيجية كانت تعطي المكانة الأولى في اهتماماتها الى المرأة الجزائرية ... وكان تعطش الرجل المستعمر وشراهته ومناهجه في الصراع تذهب كلها مذهبا يثير ضروبا من السلوك كردود الأفعال المعاكسة لدى الشعب الجزائري .. بل أننا نرى أن هذا الأخير يواجه العنف المتبع لدى جنود الاحتلال بتبني مبادىء مستلهمة من ثقافته الأصلية العريقة . ونرى أخيرا أن مغامرة المستعمر من أجل كسب النصر بأي ثمن ستثير كل كوامن الشخصية الجزائرية الأصيلة .

ولأول وهلة ـ بعبارة أخرى ـ يبدو جليا ان هذه التصرفات العنيفة للمحتل ومشاريعه هي التي تعرف وتحدد

مراكز المقاومة التي تنتظم من حولها ارادة الحرية والخلود عند شعب من الشعوب .

لقد كان الشك يداخل نفوس كثير من أبناء الشعب حينما كانوا يتساءلون ما اذا كان في الامكان حقيقة مقاومة اعتداءات الغازي المحتل كما وكيفا .

يقول فانون : «لم يكن الفدائي الجزائري يغفل أو يتعاطى ما يغفل عينيه لحظة واحدة كالمخدرات .. على عكس الفوضويين الذين اختل توازنهم واشتهرت أسماؤهم عن طريق الأدب والفكر . ولم يكن الفدائي بحاجة الى تجاهل الخطر أو الى بعث الغموض في ذهنه قصد النسيان فهو يدع الموت ينفذ الى روحه منذ اللحظة التي يقبل فيها المهمة»[1] .

لم تتجل هذه الملامح الثابتة للشخصية الجزائرية عند فانون الا بعد اندلاع الثورة التحريرية المسلحة . فقد قفز فانون «من التمرد على الزنجية الى الثورة الوطنية القومية في نطاق حرب التحرير الجزائرية لأن الثورة الجزائرية أتاحت له اتصالات جديدة ، وامدته بتجربة ضخمة»[2] .

---

1) Sociologie d'une révolution - Op. Cité - p. 40

(2) محمد الميلي ، المرجع السابق ص 51 .

وقد اكتشف فانون بأن الثورة الجزائرية تستمد أصولها أولا وقبل كل شيء من منبع استرجاع التراث الماضي الذي يذكر بأن الجزائر منتمية الى قيم حضارية ومتمسكة على مر السنين بشخصية عربية أصيلة.

وتطلع فانون على كل المحاولات التي قام بها الاستعمار الفرنسي للقضاء على الثقافة الوطنية الجزائرية واكتشف عند الشعب الجزائري وجوده وكيانه وان الحرب التي يشنها المستعمر لا تسعى سوى لمحاولة فاشلة تستهدف محو شخصية شعب بأكمله.

وعلينا أن نعود قليلا الى هذه الشابة التي لم تخلع الحايك الا بالأمس لنرى انعكاسات تصرفاتها الطارئة وملامحها الاستثنائية التي أصبحت وليدة التوتر العارض أثناء حرب التحرير.

فهذه المرأة تتقدم نحو المدينة الأروبية الحافلة بالجنود المقاتلين ورجال البوليس فتشعر وهي غير محجبة باحساس مخيف، احساس بالقصور والنقص لأنها ليست في زيها العادي أي أنها قد صارت «عارية» ... آنذاك تتفجر طاقات شخصيتها لتجعلها تتخذ سلوكا استثنائيا تسعى به الى تحطيم أدنى خجل وأن تتحاشى كل ما من شأنه

ان يجتذب الانتباه لتقوم بمهمتها الثورية حسب ما تقتضيه الظروف .

«ان هذه المرأة ـ يقول فرانـز فانون ـ التي لم تكن تخرج من البيت اطلاقا قبل الثورة إلا إذا صحبتها أمها أو زوجها وجدت نفسها تأخذ على عاتقها بعض المهام المحددة مثل التوجه من وهران الى قسنطينة أو الجزائر ، وكان عليها أن تمضي اياما كثيرة بمفردها حاملة توجيهات ذات أهمية قصوى بالنسبة للثورة ، فتأخذ القطار وتمضي لقضاء الليل عند أسرة مجهولة أو عند بعض المناضلين» . . . ونلاحظ في نفس هذا السياق انواع السلوك الاستثنائي وملامح الشخصية الجزائرية التي ظهرت بصفات جديدة خلال فترة الصراع و الكفاح المسلح ، عند الرّجل الجزائري الذي يقبل بهذا الوضع الجديد وهذا التصرف المستحدث ... ذلك أن الرجل الجزائري التقليدي الذي تميز بالغيرة القديمة وبالتمسك «الأسري» قد فقد كل هذا عند احتكاكه بالثورة .

وعند التزام الزوج أو الأب النضال يكتشف كل منهما ابعادا جديدة حول العلاقات بين الجنسين وهذا موقف مخالف تمام المخالفة مع الموقف السابق لكنه

لا جدال في انه يعد سلوكا كامنا الى الأبد في ملامح الشخصية الجزائرية وانعكاساتها الحركية في الثورة الجزائرية .



الفصل الثالث

ترجمة للمقدمة وللفصلين الأول والثاني من فرانز فانــون «سـوسيولـوجـيـة ثــورة»

مقدمة الكاتب

قريبا تدخل حرب الجزائر سنتها السادسة ولم يكن أحد سواء فيما بيننا هنا أو في العالم بأسره يشك ، في شهر نوفمبر 1954 ، أنه سيتحتم على الجزائريين القتال مدة ستين شهرا قبل ان يفك الاستعمار الفرنسي حصاره ويعطي صوته للشعب الجزائري .

وهكذا مضت خمس سنوات من المعركة دون أن يطرأ أي تعديل سياسي ولا يزال المسؤولون الفرنسيون يواصلون تصريحهم ان الجزائر فرنسية .

ان هذه الحرب قد عبأت الشعب الجزائري بأجمعه وأجبرته على أن يستثمر مدخراته وكل مصادر ثروته الخفية جملة واحدة . ولم يشأ الشعب الجزائري أن يمهل نفسه لأن الاستعمار الذي واجهه لم يدع له أدنى مهلة . لذا

كانت هذه الحرب حربا هوجاء قادها الشعب لتحطيم الظلم الاستعماري .

وقد طاب لخصومها أن يؤكدوا بأن الثورة الجزائرية تتألف من مجموعة من السفاحين . أما الديمقراطيون الذين كسبت الثورة الجزائرية عطفهم فكثيرا ما كرروا على مسامعها أنها قد ارتكبت عددا من الأخطاء .

ولقد حدث فعلا ان نقض مواطنون جزائريون توجيهات المنظمات القيادية وأن الكثير من الأمور التي كان ينبغي تجنبها قد جرت على أرض الوطن ، أمور كانت في الغالب تتعلق فضلا عن ذلك بمواطنين جزائريين آخرين .

ولكن ما الذي عملته الثورة اذن ؟ أتخلت عن مسؤوليتها ؟ ألم تعاقب هذه التصرفات التي كادت ان تعيب كفاحنا ؟ ألم يذكر السيد فرحات عباس ، رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية علانية التدابير التي كان بعضها ذا أهمية قصوى والتي اتخذتها ادارة الثورة ؟

وعلى الرغم من هذا فمن ذاك الذي لا يفهم من وجهة النظر النفسية وسائل العنف المفاجئة ، التي وجهت ضد الخونة ومجرمي الحرب ؟ وحتى الرجال الذين قاموا بالحملة

في تدخل «الجيش الأول الفرنسي» قد اشمأزوا شهورا كاملة من تصرفات المنصفين الذين قاموا في اللحظات الأخيرة باطلاق رصاص أسلحتهم على المتعاونين مع العدو ... بل وأولئك الذين شاركوا في عمليات جزيرة (ايلب) وحملة ايطاليا والارساء في ميناء (طولون) آذاهم وأقلق مشاعرهم اجراء تصفية الحسابات الأخوية غير المشروعة والتي جرت غالبا بشكل مخجل فاضح . ومهما يكن من أمر هذه الأحداث فانه لا يذكر من بينها اعدام واحد في صورة تطبيق قضائي عاجل من جانب رجال المقاومة ضد مدنيين غير مسلحين ، بعد القيام بتعذيبهم . أما جبهة التحرير الوطني فانها لم تخش حتى في الوقت الذي تعرض فيه الشعب لهجمات الاستعمار الشديدة الحدة ، أن تحرم بعض الأنواع من النشاطات وأن تذكر دوما وحداتها المجندة بالقوانين الدولية المتعلقة بالحروب . ويتحتم على شعب خاضع للاستعمار ان ينتصر في الحرب التحريرية ولكن عليه ان يبلغ ذلك الانتصار بطريقة مشروعة وخالية من «الهمجية» . (فالشعب الأوروبي الذي ذهب مذهب التعذيب هو شعب ساقط يتنكر لتاريخه ، في حين أن الشعب المتخلف الذي يذهب هذا المذهب نفسه يحافظ على طبيعته ويتصرف تصرف شعب متخلف) .

وكان على الشعب المتخلف (النامي) ان يمارس (اللعبة الشريفة) حتى لا تؤاخذه (الأمم الغربية) من الناحية الأخلاقية ، في حين خاطر خصمه ، مستريح الضمير من أجل استكشاف وسائل الارهاب الجديدة استكشافا لا حد له .

ومن الضروري أن يبرهن هذا الشعب المتخلف (النامي) دفعة واحدة وفي كل التفصيلات الصغيرة على أنه أكثر الشعوب شفافية وأكثرها سيادة لنفسه سواء عن طريق اثبات قوة صراعه أو عن طريق اثبات لياقته لأن يؤلف أمة من الأمم ، أو عن طريق اثبات نقائه في كل حركاته ... ولكن ذلك كله من أصعب الأمور .

ولقد حدث منذ ستة شهور بالضبط أن حوصر في احدى ضواحي مدينة معسكر ما يزيد عن ثلاثين مجاهدا استنفدوا كل مؤنهم ولم يقعوا في الأسر الا بعد أن استخدموا كل وسائل الدفاع بما في ذلك القاء الأحجار على العدو . فسجنوا ونفذ فيهم الاعدام امام أهل القرية ، في وقت أفرد فيه طبيب جزائري في قطاع آخر فرقة من الجنود أرسلها إلى الحدود من أجل أن تستحضر ، بالسرعة الممكنة ، أدوية بعينها من شأنها أن تعالج مريضا فرنسيا سجينا . وقد ذهب ضحية هذه المهمة مجاهدان جزائريان لقيا

حتفهما أثناء المسيرة ولقد حدث كذلك في أوقات أخرى أن أرسل بعض الجنود لمهمة تمويه حتى يمكنوا فرقة من المسجونين من بلوغ قواعدهم الرسمية سالمين .

وقد نشر الوزيران الفرنسيان (لاكوست) و (سوستيل) صورا بقصد الاساءة لقضيتنا وكان بعض هذه الصور يمثل أمورا قام بها بعض أعضاء ثورتنا وكان بعضها الآخر متعلقا ببعض من ضمن تلك الآلاف من الجرائم التي ارتكبها (بيللوني) والقوات غير النظامية (للحركة) التي كان يقوم بتمويلها وتسليحها الجيش الفرنسي ، وكان بعضها في نهاية الأمر يصور تلك العشرات والآلاف من الجزائريين والجزائريات الذين راحوا ضحية القوات الفرنسية .

لا .. ليس من الصواب ان نزعم ان الثورة قد ذهبت الى أبعد مما ذهب اليه الاستعمار . ولكننا لن نبرز في نفس الوقت ردود فعل مواطنينا المباشرة . فنحن نفهمهم كل الفهم ولكننا لا نستطيع أن نعذرهم أو أن نرفضهم . فبحكم اننا نتوق الى جزائر ديمقراطية حديثة ولأننا نعتقد أنه لا يمكن الصعود مع التحرر في قطاع من القطاعات والانخفاض بعد ذلك في قطاع آخر ، فنحن نندّد وقلوبنا تملؤها الحسرة بأفعال أولئك الاخوة الذين ألقوا

بأنفسهم في النشاط الثوري بعنف يكاد يكون فيزيولوجيا مما خلقه وتعهده الاضطهاد القديم .

ولعل الاناس الذين ينكروننا أو يؤاخذوننا على تلك الفترات الغامضة من ثورتنا يجهلون الفاجعة الفضيعة التي تصيب مسؤولا تحتم عليه أن يقر عقوبة ضد مواطن تلخصت خطيئته في قتل خائن مشتهر بخيانته ، أو ما هو أكثر من ذلك في قتل امرأة أو طفل – دون الحصول مسبقا على أمر بذلك – فهذا الرجل الذي يحاكم بلا قواعد أو قانون ، ولكن بالرجوع فقط الى الضمير الشخصي لكل واحد ، هذا الضمير الذي ينص تارة على ما ينبغي القيام به وتارة على ما ينبغي حظره ليس طارئا على الجماعة المقاتلة ، فهو قد قدم براهين لا مشاحنة فيها عن انكار الذات والوطنية والشجاعة اثناء شهور عديدة ، بيد أن ذلك لا يمنع من محاكمته . ويتحتم على المسؤول أو الممثل المحلي للمنظمة القيادية أن يطبق التوجيهات ، ومن الضروري أن يأخذ على عاتقه أحيانا القيام بدور يمثل الاتهام طالما كان الآخرون من أعضاء الفرقة قد امتنعوا عن قبول اتهام هذا الأخ أمام المحكمة الثورية .

انه ليس باليسير ان نقوّم بأدنى الهفوات كفاح شعب هزته 130 سنة من السيطرة ضد عدو مثل الاستعمار

الفرنسي الشديد التصميم والقسوة . وقد أجرت السيدة (كريستيانة ليليا ستيارنة) الصحفية السويدية في احدى المعسكرات ، حديثا مع بعض الأفراد من بين المهاجرين الجزائريين ، وهاك نصّا من الاستطلاع الصحافي الذي أجرته :

«ان الموالي في الصف ولد عمره سبع سنوات ظهرت في جسمه جروح عميقة من جراء سلسلة حديدية شد بها وثاقه أثناء قيام الفرنسيين بعمليات التعذيب والقتل لآبائهم واخوانهم وتعمّد ملازم أن يمسك بعينيه مفتوحتين برغم أنفه حتى يشاهد الطفل ذلك ويتذكره ردحا من الدهر» ...

«وقد قال هذا الطفل للذي حمله بيده مدة خمسة أيام وخمس ليالي ليوصله الى المعسكر : (لا أتوق الا لشيء واحد : هو تمكني من تقطيع جندي فرنسي إربا إربا» .

فهل نستطيع إذن أن نعتقد أنه من السهل أن ننسي هذا الطفل الجريمة التي ارتكبت ضد أبويه وكذلك مقته الشديد في آن معا ؟ وهل تشكل هذه الطفولة اليتيمة التي تكبر في جو الابادة المطلقة كل ما تتألف منه تلك الرسالة التي سوف تخلفها الديمقراطية الفرنسية ؟

ولم يكن أحد يعتقد أن فرنسا ستدافع طيلة خمس سنوات عن هذا الاستعمار السفيه دفاعا تاما ، وانها ستقوم في القارة الافريقية بمثل ما قامت به زميلتها في في افريقيا الجنوبية .. بل ولم نكن نعتقد فضلا عن ذلك ان الشعب الجزائري سيسجل اسمه في التاريخ بمثل هذه القوة !

وعلينا أن نتحاشى الأوهام . ولن تكون الأجيال القادمة اشد تهاونا كما لن تكون منهوكة القوى بصورة أكثر من تلك التي آثرت الفرار ، بل أصبح يتوفر على العكس من ذلك نوع من الصلابة ومن الارادة بغية الوصول الى مستوى (الأبعاد التاريخية) حرصا على عدم التهاون في حق مئات الآلاف من الضحايا .. هذا بالاضافة الى أن ثمة تقديرا دقيقا لابعاد الخلاف والصداقات والتضامنات والمصالح والتناقضات التي تملأ العالم الاستعماري .

«ان الطريقة الوحيدة التي يمكن ان يستخدمها الجزائري اليوم بقصد اعطاء معنى لموته هي الحصول على بندقية والانضمام الى جيش التحرير الوطني .. فالحياة تحت السيطرة قد فقدت معناها منذ أمد مديد» .

وعندما تصبح هذه صورة للتصريحات التي يفوه بها أعضاء من الحكومة الجزائرية فهي لا تعبر عن خطإ

في الحكم أو عن الذهاب الى أبعد مدى ممكن في التطرف بل هي أبسط صورة لتقرير الحقيقة .

وفي الجزائر موقف لا يقبل النقض فيما يتعلق بالشعب الجزائري نفسه . ولقد لاحظ الاستعمار الفرنسي ذلك بنفسه وهو يحاول الآن ان يتتبع الحركة التاريخية بطريقة فوضوية ، واذا بنا نرى ثمانين نائبا جزائريا يشغلون مراكزهم في الجمعية الوطنية الفرنسية ولكن ذلك لا يجدي نفعا اليوم .

لقد وافق على الجمعية النخبة الموحدة والمتطرفون من أعضاء السيطرة والسيادة ولكن هذا يدعو للسخرية في عام 1959 اذا وضعنا في الاعتبار بعض الابعاد الاستثنائية التي أدركتها الجزائر بوعيها القومي ، فلنستطلع على سبيل المثال رأي أية امرأة أو رجل في مشارق الأرض ومغاربها ، ولنسأله ما اذا كان الشعب الجزائري لم يحصل بعد على حقه في نيل الاستقلال نيلا مضاعفا عشرين مرة . انه ليس ثمة أحد عدا أولئك الفرنسيين الذين ساقوا بلدهم الى هذه المغامرة الشنيعة ، لا يأمل في عام 1959 في جعل حد نهائي لهذه المجزرة حتى يولد الوطن الجزائري .

ومع ذلك فالحرب تتواصل دون أي مخرج متوقع ،

ومعروف أن الجيش الفرنسي لا يزال يهيء للشهور المقبلة سلسلة من الهجومات . فالحرب مستمرة ، وللناس الحق اليوم اذن في أن يتساءلوا عن أسباب هذا العناد . وعلى الجميع واجب في أن يفهموا هذا التعمق في حرب تشبه من شتى جوانبها الملاطفة عن طريق القسوة العاطفية المرضية . ونحن نود أن نبرز في هذه الدراسة الأولى أنه قد نشأ فوق الأرض الجزائرية مجتمع جديد .. فرجال الجزائر ونساؤنا لا يشبهون رجال ونساء عام 1830 ، وهم لا يشبهون كذلك رجال ونساء 1954 ولا رجال ونساء 1957 ، فالجزائر القديمة قد انتهت .

ان هذا الدم البريء الذي يتفجر من الشرايين المكتنزة فوق التراب الوطني قد رفع الى الوجود انسانية جديدة ولا ينبغي ان يجهل أحد هذه الواقعة .

وبعد أن أكدت فرنسا بالأمس بأنها «لا تسلم مليونا من أولادها الى العرب» أخذت تصرح اليوم انها لن تتخلى أبدا عن الصحراء وثروتها ، وتلك حجج ليس لها بطبيعة الأمر أية قيمة عند الجزائري . فهو يجيب على ذلك بأن ثروة بلد من البلدان لا يمكن أن تشكل عذرا مقبولا لظلمه واضطهاده .

وسوف نوضح هنا أن شكل ومحتوى الوجود القومي يوجدان في الجزائر منذ القدم وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال ان يكون الرجوع الى الوراء موضع تفكير. واذا كنا نلاحظ في كثير من البلدان ذات المستعمرات ان الاستقلال الذي تحصل عليه بعض الأحزاب هو وحده الكفيل بأن يبث الوعي القومي في شعب من الشعوب، فان الوعي القومي هذا وأنواع البؤس والأهوال المشتركة هي التي تجعل الشعب الجزائري يأخذ زمام مصيره بيديه. ذلك أن الجزائر قد حصلت مبدئيا على استقلالها، واعتبر شعبها نفسه بعد ذلك صاحب السيادة والسلطان، فلم يبق حينئذ لفرنسا الا أن تعترف بها.. وهذا أهم شيء بطبيعة الحال.

غير أن الوضع من أمهات المسائل وينبغي أن يذاع لدى العامة، لانه يضع حدا أساسيا لآمال الاستعمار الفرنسي، العسكرية منها والسياسية. فلماذا يا ترى ترفض الحكومة الفرنسية وضع نهاية لحرب الجزائر واقامة تفاوض مع اعضاء الحكومة الجزائرية؟ أليست هذه تساؤلات يطرحها كل رجل شريف عرف عام 1959؟ أنه لا يكفي أن نؤكد بأن الاستعمار الفرنسي لا يزال قويا في فرنسا أو بأن الصحراء قد غيرت معطيات المسألة فكل ذلك

صواب لكن ثمة شيء آخر يجعلنا نعتقد في الجزائر من أن النقطة الرئيسية التي تقف حجر عثرة امام الاستعدادات القوية وامام الحكومة الفرنسية كانت تتمثل في الأقلية الأروبية ولذا فلقد خصصنا فصلا كاملا لهذه المسألة .

ان الجزائر مستعمرة عمرت بالسكان ، ونحن نعلم بالمعنى الواسع ، أن آخر مستعمرة عمرت بالسكان واذاعت صيتها هي افريقيا الجنوبية . وان الأروبيين في الجزائر لم ييأسوا أبدا من قطع حبل الصداقة مع فرنسا وفرض سننهم القاسية على الجزائريين ، وتلك هي الظاهرة الوحيدة التي تميزت بها السياسة الاستعمارية في الجزائر لأن هذه الفكرة في صالح الجيش الفرنسي . اما اشاعات السلم التي تفجر هنا وهناك فلا ينبغي أبدا أن ننظر اليها بعين الاعتبار .. ففرنسا لا تحقق السلام الا بطريقة دعم سيطرتها على الجزائر أو «تحطيم الاقطاعات الأوروبية في الجزائر» وما عدا هذين الجانبين فيجب أن يفرض عليها السلام دوليا من قبل الأمم المتحدة ، أو عسكريا من قبل القوات الجزائرية .. وبذلك نرى أن آفاق السلام بعيدة كل البعد .

سوف نبين أن فرنسا لا يمكن أبدا أن تستأنف من جديد تسلطها على الجزائر ، حتى وان كان هذا

التسلط مخففا مستورا . فالحكومة الفرنسية مضطرة الى أن تقاوم بعض المئات من مجرمي الحرب وان تغطي أكثر فأكثر هذه الابادة التي تزداد ضيقا وحدة في الجزائر . ولعل السلطات الفرنسية تسخر حينما تؤكد أن «عدد الثائرين 25000 رجل» اذ ما قيمة هذه الاعداد بالنظر الى الطاقة المقدسة العظيمة التي تثبت غليان الشعب بأكمله ؟ وحتى ان وقعت البراهين على أن عدد قواتنا يتجاوز 5000 رجل غير مسلح تسليحا كافيا ، فما قيمة معرفة هذه الأعداد اذا كان مليون مسلح يبقي دوما هذه السلطات غامضة غير راضية ؟ فهناك مئات الآلاف من الجزائريين والجزائريات الآخرين لا يعذرون المسؤولين لعدم تجنيدهم وتركهم غير مسلحين .. وحينئذ نتساءل كيف يكون مصير الحكومة الجزائرية دون وجود شعب بأكمله وراءها ؟

لقد اعترفت السلطات الفرنسية حديثا وبصفة رسمية بوجد مليون من الجزائريين المفترقين منهم والمجتمعين ، وارادت ان تقسم الجيش الشعبي وتتجنب على ما يبدو (تعفن الجزائر) ولكن الى أي حد ؟

وبمجرد توفر مليون من الرهائن المعتقلين صار الفرنسيون أنفسهم ينذرون بالخطر وأخذوا يرددون عباراتهم المشهورة : «ان الأدوية لم تؤثر في هؤلاء المسجونين بسبب

هبوط مستواهم الفيسيولوجي هبوطا عميقا» ومع ذلك لا يزال الاستعمار يفرغ جهده الجهيد من أجل دعم سيطرته واستغلاله البشري والاقتصادي ، وكذلك من أجل المحافظة الذاتية على الصورة المحتقرة التي كان الجزائري يرى فيها نفسه من قبل .. لكن ذلك قد أصبح مستحيلا منذ أمد مديد .

ان الأمة الجزائرية لم تعد اليوم مرسومة في آفاق خيالية . ولم تعد وليدة خيالات غامضة قد اعتجنتها الخرافات والأوهام ، ذلك أنها قلب الرجل الجزائري الجديد ذاته ، وهو رجل (ذو طبيعة جديدة) وذو أبعاد مستحدثة لوجوده . والدعوة التي تذهب الى أن الرجال يتغيرون في وقت تغيرهم للعالم ، لم يكن لها أبدا مثال أعظم وضوحا ونمط أقوى دليلا من الجزائر . فتجربة القوة هذه لا تعيد تشكيلة ضمير الإنسان ووعيه بذاته . ولا تحول الفكرة التي يضمرها إزاء المتسلطين عليه أو على العالم فحسب .

ولكن هذه المعركة ذات المستويات المختلفة تعمل اليوم على تجديد رموز الشعب وأساطيره واعتقاداته وانفعالاته .. ونحن نشهد في الجزائر استئنافا جديدا لسير الانسان .

فمن ذا الذي يستطيع أن يأمل في ايقاف هذه

الحركة الجوهرية ؟ ألا يجدر بنا أن نفتح أعيننا لنتأمل ما في هذا المصير من جلال ومن وضع طبيعي أيضا ؟ ألا يزال الأمر في هذا العصر ـ كما كان في الماضي ـ يحتاج إلى أن يقاتل الإنسان ويموت ليحصل على حقه في أن يكون مواطن أمة من الأمم ؟

أليس شنيعا ومخزيا وفاحشا أن يقال مثل هذا الشعار : «الفرنسيون .. المسلمون» ؟ أليس هذا البؤس وهذه الوضعية التي يرعاها الاستعمار ويتعهدها كل صباح مجرد تبرير للجرائم المتقنة هذه ؟ أليس على وجه البسيطة ما يكفي من العزائم لفرض التعقل ضد عدم التعقل ؟ لقد صرح الجنرال (شال) «أن احتمال التغلب على المقاومة لم يعد أمرا يمكن تجاهله» ، لكن ذلك يعتبر سخرية اذ أن القواد العسكريين والجنرالات الاستعماريين يكررون نفس الشيء ولكن كيف لا يفهمون أن الثورة لا تنهزم ، وما الذي يعنيه (القضاء على المقاومة؟) . كثيرا ما سعوا للتغلب على وحدة الكامرون الشعبية ولكن ألم يمنح الاستقلال الى الكامرون ؟ لعل الفرق الوحيد هنا ، هو أن الاستعمار قد خلف أضعافا مضاعفة ، في حظيرة الشعب الكاموروني قبل انصرافه ، من انواع الخديعة

واستغلال النفوذ وصنوف البغض والضغينة ... ومن ثم كان مستقبل الكامرون مرهونا سنوات عديدة بسياسة ذات طابع مشؤوم وركيك على ما يبدو.

واننا نود أن نوضح في هذه الصفحات أن «الاستعمار قد خسر المبادرة نهائيا في الجزائر بينما ربحها الجزائريون نهائيا وفي جميع الوجوه».

ان هذا الشعب الذي فقده التاريخ ، والذي اعاد الى الوجود ثانية علما وحكومة اعترفت بها دول عديدة ، لا يمكن أن يتراجع الآن عن أمر قصده . فهذا الشعب الأمي الذي يسجل صفحات من أجمل صفحات النضال وأبلغها تأثرا ، لا يمكن ان يقهر ويسكت أبدا .

فعلى الاستعمار الفرنسي ان يدرك هذه الأمور وألا يجهل أن الحكومة الجزائرية تستطيع ان تعبىء في أي وقت كان ، أي جزائري من الجزائريين ، وحتى أولئك المنتخبون الجدد الذين سجلت أسماؤهم بالرغم منهم في القوائم الانتخابية للادارة يستقيلون بأدنى أمر تصدره جبهة التحرير الوطني . والأمر نفسه يتعلق بنواب (13 مايو) الذين لا يمكنهم كذلك أن يعارضوا السلطة الوطنية الجديدة . اذن ؟ قد يستطيع جيش من الجيوش أن يسترجع

في جميع الأوقات معركة خسرها ، ولكن كيف يستطيع أن يثبت من جديد الخوف واليأس ومركب النقص في ضمير شعب من الشعوب ؟ وكيف نفترض ـ كما كان الجنرال (ديجول) يدعو الى ذلك بسذاجة ـ ان «يعود الجزائريون الى ديارهم» ؟ أي معنى يمكن أن تتضمنه هذه العبارة اليوم بالنسبة للجزائريين ؟

ان الاستعمار يجهل المعطيات الحقيقية للمسألة ويخيل اليه أننا نقدر قواتنا بتقدير عدد رشاشاتنا الثقيلة ، لقد كان ذلك صحيحا في الشهور الأولى من عام 1955 أما اليوم فقد أصبح الوضع على غير ما كان عليه سابقا .

ذلك أن عناصر أخرى قد أصبحت ذات تأثير في التاريخ ، ثم انه لم تعد الرشاشات والمدافع اليوم تمثل أسلحة المستعمر الغازي .

ان ثلثي سكان العالم يستعدون اليوم الى منح الثورة كل ما تحتاج اليه من رشاشات ثقيلة ... ولئن كان الثلث الأخير قد يمتنع عن مثل هذا ، فليس معنى ذلك أنه لا يتفق مع قضية الشعب الجزائري . انه على العكس ، يشعر دوما وبتعبير ملموس صريح أنه يمنحه تأييده المعنوي المطلق في جميع الأوقات .

ان قوة الثورة الجزائرية تتمثل باديء ذي بدء في التحويل الجذري الذي حدث عند الجزائري . أما الجنرال ديجول فقد كان على صواب حينما صرح أخيرا ، متوجها إلى المتطرفين الأوربيين في الجزائر : «ان جزائر بابا قد ماتت» . لكن الجزائر قد ذهبت إلى أبعد من ذلك .

فقد ماتت كذلك جزائر الأخ الكبير واصبحت اليوم جزائر جديدة ووطنا جزائريا وحكومة جزائرية ... وتلك حقائق ينبغي الرجوع اليها آجلا أو عاجلا .

سوف نرى في هذه الصفحات تلك الاضطرابات التي حلت بضمير الجزائري وتلك التشققات التي استعاد بفضلها المجتمع الأروبي في الجزائر تكوينه . ونحن نشهد في الواقع عقلية المستغل الأروبي وهي تحتضر رويدا رويدا ، ولكن بالتأكيد .

ومن ثم كانت هذه الدعوة التي تصادفنا غالبا والتي تثبت «ان نهاية الاستعمار هي نهاية رجل الاستعمار والخاضع للاستعمار على السواء» .

ان العلاقات الجديدة لا يمكنها ان تتلخص في احلال همجية بهمجية أخرى أو في سحق الانسان بسحق آخر للانسان . فالشيء الذي نريده نحن الجزائريون

هو اكتشاف الانسان من وراء رجل الاستعمار أي ذلك الانسان الذي يعتبر في نفس الوقت انسانا منظما وضحية لنظام خنقه وحمله على السكوت . أما نحن فقد ارجعنا حقوق الرجل الجزائري المستعمر منذ شهور طويلة وانتزعناه من الاضطهاد الحاقد المديد . وقد نهضنا ونحن نـقدم الآن على نهضة ملحوظة ، فمن ذلك الذي يمكنه أن يرمي بنا ثانية في حجر الاستعباد ؟

اننا نتوق الى الجزائر مفتوحة للجميع ومناسبة لكافة العباقرة . ذلك ما نريده وسنقوم به ولا نعتقد قط أن ثمة قوة من شأنها أن تسد طريق سعينا .

(فرانز فانون)

يوليو 1959



الفصل الأول

الجزائر ترفع نقابها

تؤلف تقنيات الملبس وتقاليد الزي والزينة أكثر صور الأصالة لفتا للأنظار ، أي أن هذه التقنيات هي أول ما يبدو للرؤية في مجتمع من المجتمعات . ذلك أنه توجد بطبيعة الحال ، في داخل المجموعة وفي اطار الشكل الهيكلي الخارجي المحدد سلفا بصفة قاطعة ، تعديلات تمس التفصيلات وتجديدات تحدد الموضة في المجتمعات الشديدة التقدم وتحصرها حصرا . غير أن خط السير العام يظل متجانسا ويمكن اعادة تجميع الاتجاهات المدنية الكبرى ومناطق حضارية شاسعة عن طريق التقنيات ذات الأصالة المخصصة من ملابس الرجال والنساء .

وتعرف أنماط المجتمع أول ما تعرف من خلال الملبس ، سواء بواسطة الاستطلاعات (الريبورتاجات) أو بواسطة الأشرطة السينمائية . فثمة حضارات بلا ربطة العنق وحضارات أخرى بالتنورات وثالثة بلا قبعات .

ويستدل على الانتماء الى بعض الاتجاهات الثقافية المعروفة في أغلب الأحيان ، بواسطة تقاليد الملبس لدى أعضائها . وأول ما يلاحظه السائح مباشرة في العالم العربي مثلا هو الحجاب الذي تلتحفه النساء . فقد بقي السائح مدة طويلة قبل أن يعرف أن المسلم لا يأكل الخنزير في طعامه أو أنه يمتنع عن العلاقات الجنسية في النهار أثناء شهر رمضان ، لكن حجاب المرأة هذا يظهر بالحاح وثبات يكفيان لجعله طابعا مميزا للمجتمع العربي .

ويعتبر الحجاب في المغرب العربي تقليدا من تقاليد اللباس في المجتمعات الوطنية ، التونسية منها والجزائرية والمغربية والليبية . وهو يحدد بالنسبة الى السائح الأجنبي ، المجتمع الجزائري وعنصره النسوي معا[1] .

---

(1) نحن لا نذكر هنا الأوساط الريفية حيث تكون المرأة غالبا محتجبة : وفضلا عن ذلك لم يحسب حساب المرأة القبائلية التي لا تستعمل اطلاقا الحجاب خارج المدن الكبرى . والمرأة العربية هي أولا تلك التي تحمل الحجاب في حضور السائح الذي يندر وجوده كمغامر بين الجبال . وفي العادة تؤخذ هذه الطبيعة الخاصة بالمرأة القبائلية بوصفها واحدة من موضوعات عديدة أخرى كعنصر من عناصر الدعاية الاستعمارية التي توجه لدعم فكرة التعارض بين العرب والبربر. وتختص هذه الدراسات بتحليل التعديلات النفسية ، فتترك جانبا العمل التاريخي الخالص . وسوف نتناول بعد قليل هذا المظهر الآخر للواقع الجزائري بالفعل ، ونكتفي هنا بالاشارة الى أن النساء القبائليات قد طورن وسائلهن «وميكانيزماتهن» في

أما بالنسبة الى الرجل الجزائري فقد يمكن على العكس اعطاء مواصفات للتعديلات الاقليمية الصغيرة . فهناك «الطربوش» في المراكز العمرانية و «العمامة» «والجلباب» في الأقاليم الريفية . وتتيح ملابس الرجال الفرصة لإقامة حد من الحرية والاختيار مع أقل مجال للتنافر بينما تعمد المرأة الى توحيد المرأى امام ناظر المجتمع النسوي الجزائري وهي مأسورة في حجابها الأبيض .

ومما لا شك فيه أن الأمر يتعلق بزي عام لا يقبل أي تعديل أو تنوع[2] . «فالحايك» يحدد المجتمع الجزائري الخاضع للاستعمار تحديدا واضحا جدا . ونحن نستطيع ،

الدفاع عن أنفسهن خلال المائة والثلاثين سنة التي ظل فيها الاحتلال قائما . وقد تطورت صور العمل الذي أصبح بالمثل ذا أوجه ابتكارية أصيلة تماما أثناء حرب التحرير .

(2) هناك ظاهرة تستحق أن نذكرها هنا . ذلك أنه أثناء حرب التحرير الخاصة بالشعب المغربي وبالذات في المدن ، حل الحجاب الأبيض محل الحجاب الأسود . ويمكن تفسير هذا التعديل العام بحرص المرأة المغربية على التعبير عن تعلقها وارتباطها بالملك محمد الخامس . ومما يذكر في الواقع أن الحجاب الأسود الذي يشير الى الحداد لم يظهر الا عقب نفي عاهل المغرب مباشرة . ومن الجدير بالملاحظة على مستوى هذه الدلالات ، أن الأسود لم يعبر قط عن الحداد أو الحزن في المجتمع المغربي أو العربي . وبتجاوب تبني اللون الأسود كسلوك في الصراع ، مع الرغبة في الضغط بطريقة رمزية ، على رجال الاحتلال ، أي باختيار العلامات الخاصة بالشعب بصفة منطقية .

طبعا ، أن نبقى مترددين حائرين أمام فتاة صغيرة ، لكن لا يلبث أن يختفي كل تشكك وقت البلوغ . فالحجاب يحدد الأمور وينظمها ، وذلك ما يجعل المراقب الأجنبي ينظر الى المرأة الجزائرية بوصفها «تلك التي تختفي وراء الحجاب» . سوف نرى أن الحجاب الذي يعد عنصرا من العناصر التقليدية الملبسية الجزائرية سيصبح فرس الحلبة في معركة ضخمة تعبىء قوات الاحتلال بمناسبته أكثر مصادر ثروتها قوة وتنوعا ، بينما يبذل فيها المواطن الخاضع للاستعمار قدرة مذهلة القصور . ويسلك المجتمع الاستعماري عامة في مقابل ذلك سلوكا متناسقا أمام لبس الخمار ، يستخدم فيه كل قيمه وخطوط هجومه وفلسفته . وقد ظهر الصدام الحقيقي قبل سنة 1954 بل من سنة 1930 الى سنة 1935 على وجه التحديد .. ذلك أن مسؤولي الادارة الفرنسية بالجزائر ، والمكلفين بتحطيم اصالة الشعب والمزودين بسلطات للعمل على تفتيت صور الوجود المحرك للقومية بشكل أو بآخر مهما كلفهم ذلك ، سوف يوجهون أقصى جهودهم على لبس الحجاب الذي صار ينظر اليه خلال المعركة كرمز لكيان المرأة الجزائرية ووضعيتها . ولم يكن ذلك الموقف نتيجة لحدس عشوائي ، بل أن اخصائي شؤون المواطنين الأصليين ورؤساء المكاتب العربية صاروا

يعملون على تنسيق نشاطهم ابتداء من تحليلات علماء الاجتماع وعلماء المسائل السكانية ومشاكل الشعوب . ولا نلبث فنشهد في المرحلة الأولى اعادة خالصة نقية للصيغة المشهورة للعبارة : «فلنمتلك النساء أولا ولا يلبث كل شيء أن يتلو» . ويجد هذا التعبير تفسيره الناجح بأن يكتسي صبغة علمية كأنه آخر «اكتشافات» علماء الاجتماع .

واعتاد الاخصائيون أن يصفوا النمط الأسري المعتمد على سلطات الأب في المجتمع الجزائري وصفا يضع الأم في الموضع الجوهري . فالمجتمع العربي قد خضع في أغلب الأحيان لتحليلات الغربيين كأنه مجتمع قائم على المظهر الخارجي فقط وكأنه يتمسك بافراط بالشكليات والوجاهة الشخصية . وتبدو المرأة الجزائرية وهي تعيش بين القوى الغامضة والجماعة ذات أهمية أولوية . ويتضح بالتأكيد أنه يوجد وراء الحكم الأبوي المرئي الظاهر ، حكم خاضع لنفوذ الأم في أساسه . وتذكر هنا أدوار الأم الجزائرية والجدات والخالات ، و «الشائبات» (المسنات) بصورة تبجيلية دقيقة .

وقد أمكن الادارة الاستعمارية اذن ان تحدد مذهبا سياسيا دقيقا على نحو : «اذا اردنا أن نضرب المجتمع

الجزائري في سياقه المتلاحم وفي مقدرته على المقاومة والصمود فينبغي أولا أن نستولي على المرأة من وراء حجابها حيث تختفي ، وفي المنازل حيث يخيفها الرجل » ، وبذلك يصبح موقف المرأة اذن موضوعا للعمل الفعال . فالادارة الأجنبية المسيطرة ترغب في أن تدافع بجلال عن المرأة المستذلة المعزولة المحجوبة عن الأعين ... ويجري على الأقلام وصف الامكانيات الضخمة للمرأة التي حولها الرجل الجزائري لسوء الحظ الى مادة جامدة فقدت حظوتها وشخصيتها ، أي انسانيتها . وتندد الادارة الاستعمارية تنديدا حاسما قائما على العلم بتصرف الرجل الجزائري وتجعله امتدادا لخصال القرون الوسطى البربرية ، كما أنها تقوم بمهارة بالغة بإلصاق عتاب نموذجي ضد الجزائري السادي المتوحش في تصرفه مع النساء ، ويجمع المستعمر الأجنبي حول حياة الجزائري العائلية مجموعة كاملة من الأحكام والتقديرات والاعتبارات ويكثر من النكات والنوادر والأمثلة البناءة محاولا بذلك وضع الجزائري في قفص الاتهام .

وتتكاثر جمعيات التعاون والتضامن مع النساء الجزائريات تنظم الشكاوي : «يا لخزي الجزائري على ما يقترفه ازاء الأنثى» وتلك هي فترة الهيجان الشديدة والاستعانة

بتطبيق كل التقنيات من أجل النفاذ والتسرب والتزاحم داخل الأحياء العربية في صورة المعاونات المسعفات ومنشطات الأعمال الخيرية .

وبدأ المشروع بمقر النساء الفقيرات الجائعات . في مقابل كيلو من السميد الموزع على الناس ، كانت توجه كمية من السخط على الحجاب والانعزال . ويعقب هذا السخط نصائح عملية تتمثل في دعوة النساء الجزائريات الى أن يلعبن «دورا أساسيا ورئيسيا في تغيير مصيرهن .»

ويجري فرض الاجابة بـ«لا» امام الخنوع المؤبد مع شرح الدور العظيم الذي ينتظرهن . وتستثمر الادارة الاستعمارية مبالغ هامة في هذا الصراع . وبعد التأكيد أن المرأة تشكل محور المجتمع الجزائري ، تبذل جميع المجهودات من أجل المراقبة والتعهد المستمر . ومن المؤكد أن الجزائري لن يحرك ساكنا وسيقاوم عملية التخريب الثقافي التي يشنها المستغل الأجنبي كما أنه سيعترض على أي اندماج ما دامت زوجته لا تمتثل للوضع الراهن . وترجع الى المرأة ، وفقا للبرنامج الاستعماري ، المهمة التاريخية بدفع الرجل الجزائري الى فقد التوازن . فاقناع المرأة وتحويل عقيدتها واخضاعها للقيم الأجنبية ،

وانتزاعها من كيانها ... كل ذلك يعني في الوقت نفسه . السيطرة الحقيقية على الرجل وامتلاك الوسائل العملية الفعالة لتخريب الحضارة الجزائرية .

واليوم ، في سنة 1959 لم تغب عن أحلام العدو استخدام المجتمع الجزائري واستئناسه بمعاونةالنساء السافرات المؤازرات للغاصب المحتل ، وبقيت تراود خيال المسؤولين السياسيين الاستعماريين[1] .

---

(1) يتحقق هذا الفعل نحو التقارب بالمثل في المؤسسات المدرسية . اذ سرعان ما يأخذ المعلمون الذين يوكل اليهم الأولاد من قبل الآباء . سرعان ما يأخذ هؤلاء المعلمون عادة الحكم القاسي حول مصير المرأة في المجتمع الجزائري . «ومن المأمول فيه أن تستطعن أنتن بثبات وتأكيد على الأقل أن تكن قادرات على فرض وجهة نظركن...» وتكاثر عدد مدارس «البنات المسلمات» . واعتادت المعلمات أو الراهبات عند اقتراب تلميذة من سن البلوغ ، أن يظهرن نشاطا ملحوظا حقيقة . وتتأثر الأمهات أولا ويخضعن للحصار ثم توكل اليهن مهمة زعزعة الأب واقناعه . وفي العادة . تزيد مظاهر الاطراء والثناء على الذكاء الخارق الذي تتمتع به التلميذة الصغيرة ، كما يتم الثناء على مدى نضجها ويقال الشيء الكثير من أجل ابراز المستقبل الباهر الذي ينتظر هؤلاء الشابات الطموحات . كما لا تظهر أي ملامح في التردد من أجل اجتذاب الالتفات نحو طابع الجريمة الذي يكمن في عملية قطع الحياة المدرسية كما هو محتمل .

ويبدو في مثل هذا الموقف نوع من التشجيع لعرض عيوب المجتمع الجزائري المستعمر . ولا بأس في هذه الحالة من اقتراح ادخال الفتاة في الداخلية المدرسية حفاظا على عدم تعرض الآباء لنقد «الجيران محدودي الأفق» . أما المتخصص في شؤون السكان الأصليين وهم المحاربون القدماء والذين بلغوا درجة من التقدم

أما الرجال الجزائريون فانهم يتعرضون من جهتهم لانتقادات زملائهم الأروبيين أو لانتقادات رؤسائهم بلهجة جدية ، ولا يوجد عامل أوربي واحد لم ير نفسه مدفوعا في اطار علاقاته الشخصية في الورشة أو في المكتب الى طرح الأسئلة الخاصة بالمناسبات العامة على الجزائري على نحو : «هل امرأتك محجبة ؟ لماذا لا تزمع العيش على الطريقة الأروبية ؟ لماذا لا تصحب زوجتك الى السينما أو المباراة أو المقهى ؟»

ولا يكتفي السادة الأروبيون بالموقف الاستفساري أو الدعوة في المناسبات ، بل انهم يستخدمون : «مناورات الهنود الحمر» من أجل تضييق الخناق على الجزائري ، ومن أجل أن يفرضوا عليه قرارات مؤلمة . وهكذا يدعو هؤلاء السادة «الجزائري وزوجته» بمناسبة حفلة من الحفلات كعيد ميلاد المسيح أو عيد رأس السنة ، أو حتى لبعض المناسبات الخاصة بالمؤسسة التي يعملون بها ، ولكن الدعوة لا تكون جماعية ، ويطلب مسبقا من الجزائري الحضورالى

فهم عبارة عن الفدائيين المكلفين بتحطيم المقاومة الثقافية في البلاد المحتلة . كذلك فان المناطق مخصصة لتكون مجالا عمليا لعدد من «وحدات التقدم النشيطة» أي لعدد من محدثي التخريب في الثقافة القومية التي تحتوي عليها تلك المناطق .

مكتب المدير حيث يدعى شخصيا بالاسم للمجيء مع «عائلته الصغيرة» الى الوليمة . ونظرا لكون هذه المؤسسة بمثابة أسرة كبيرة فان كل من يحضر بدون زوجته سيحظى بنظرة سيئة .. والسبب لا يخفى عليكم بطبيعة الحال .. ويشهد الجزائري امام هذا الانذار الرسمي لحظات صعبة في بعض الأحيان . فحضوره مع زوجته يعني الاعتراف بهزيمته وكأنه «تعريض بزوجته واستعراض لها على الملإ وفقدان اتجاهه في المقاومة» . أما حضوره وحيدا فيعني ، خلافا لذلك ، عدم ارضاء لرغبة رئيسه وتعريض نفسه للبطالة . وان دراسة حالة من الحالات المختارة صدفة وتنمية أنواع الفخاخ من طرف الأروبي من أجل تضييق الخناق على الجزائري ودفعه الى أن ينفرد بوضعه وأن يبوح بقوله : «أن زوجتي ترتدي الحجاب ولا تذهب الى أي مكان» أو ان يندفع الى الخيانة فيقول : «اذا كنت تصر على ان تراها فهاهي ذي» . ويشير الطابع السادي الشرير الخاص بالروابط والعلاقات باختصار الى المستوى النفسي حيث مأساة الوضع الاستعماري وتقابل النظامين وجها لوجه ، والملحمة الخاصة بالمجتمع الخاضع لاستعمار بكل مخصصات وجوده ازاء الأفعى الاستعمارية .

ويظهر الاعتداء بكل كثافته ضد الجزائري . فالفلاح

«ذلك العبد السلبي لمجموعة متصلبة» يجد نوعا ما من السماحة امام الحكم الذي يصدره الغازي ، في حين يتعرض المحامي والطبيب الى تنديد حاد لم يسبق له مثيل . ويشار الى هؤلاء المثقفين الذين يستمرون في ابقاء زوجاتهم في حالة نصف عبودية بالاصبع في جلاء ووضوح ، ويثور المجتمع الاستعماري بحدة ضد انعزال المرأة الجزائرية على هذا النحو ، ويبدي قلقه واهتمامه بهؤلاء النساء التعيسات اللواتي قد فرض عليهن «انجاب الأولاد» وهن محبوسات محرومات .

وتبزغ البراهين الاستدلالية العنصرية في وجه المثقف الجزائري بسهولة خاصة . فيقال مثلا : «انه على ما هو عليه من العلم والثقافة كطبيب فهذا لا ينقص شيئا من كونه عربيا قبل كل شيء ، فلنجرّده من طبيعته الأصلية وسنراه بعد ذلك ملك أيدينا» ويمكن أن تتضاعف الأمثلة المعبرة عن هذه العنصرية تضاعفا غير محدود .

فقد يعاتب المثقف جهارا على كونه يحدّ من انتشار العادات الغربية المألوفة ، وعلى أنه لا يلعب دوره كنواة فعالة لقلب عادات المجتمع الخاضع للاستعمار ، وعلى أنه لا يمتع زوجته بمزايا أكرم وأعمق .

أما في المناطق المكتظة بالسكان فقد أصبح جاري العادة الاستماع الى أروبي يعترف بسخط على انه لم ير بعد زوجة صديقه الجزائري الذي يتردد عليه منذ عشرين سنة . غير أننا نجد على مستوى أوسع ادراكا وأكثر تعبيرا وصفا مريرا للواقع كما هو في قولهم : «نبذل جهودا لا طائل من ورائها» و «... ان الاسلام متمسك بتلابيب فريسته ...» .

ويكفي اظهار الجزائري كفريسة يتصارع حولها كل من الاسلام وفرنسا الغربية بضراوة بالغة كيما ندرك أسلوب المحتل كاملا وفلسفته وسياسته التي تتجلى هنا بشكل صريح .

ويبين هذا التفسير في الواقع ان المحتل ، وقد اغضبته وقائع فاشلة صار يقدم بطريقة تبسيطية ومعيبة نسقا من القيم يستعين به المواطن الجزائري ليدرأ عن نفسه اعتداءات ذلك المحتل الكثيرة .

وقد أدى هذا الموقف الى أن ارادة التفرد والحرص على الاحتفاظ ببعض مظاهر الوجود القومي بلا مساس قد أصبحتا مندمجتين اندماجا كاملا في ضروب السلوك الدينية والخرافية والمتعصبة .

ويأخذ هذا الرفض من جانب المحتل الغازي ، وفقا لهذه الظروف أولهذه الانماط من المواقف الاستعمارية ،

صورا أصيلة . ففي المجموع كانت ضروب السلوك تلك قد خضعت للدراسة خلال العشرين سنة الأخيرة : ولا يمكننا بالرغم من ذلك أن نؤكد أن النتائج التي تحققت كانت كلها ذات قيمة .

ويستفيد اخصائيو التعليم الأول في البلاد المختلفة أو التقنيون المخططون المختصون بالمجتمعات المتأخرة ... يستفيد هؤلاء من فهمهم هذا الطابع العقيم والضار لكل اجراء يوضح بالأفضلية عنصرا ما من العناصر التي يتألف منها المجتمع الخاضع للاستعمار . وحتى في اطار الأمة التي استقلت حديثا ، فانه لا يمكن التهجم على هذا الجانب أو ذاك من المجموع الحضاري ، بدون خطر على العمل المأخوذ في الاعتبار (لا بالنسبة الى التوازن النفسي الخاص بالمواطن الأصلي) . وينبغي على وجه التحديد أن تفهم الظواهر الخاصة بالعداء للتثقيف كما لو كانت استحالة عضوية توجد فيها احدى الثقافات ، كما ينبغي تعديل أي واحد من هذه الأنماط في المعاش الانساني بدون استعادة التفكير في قيمها الشديدة العمق أو في نماذجها الأشد استقرارا في نفس الوقت . والواقع أن الكلام حول موقف العداء للتثقيف في حالة الاحتلال الاستعماري هو أمر لا معنى له اذ يجب رد ظواهر المقاومة

الملحوظة عند المواطن المحتل الى الوضع المضاد للاندماج والى محاولة الاحتفاظ بالاصالة الحضارية والقومية بالتالي .

وكان لا بد أن تحظى بطبيعة الحال قوى الاحتلال ببعض النتائج عندما حملت على ظاهرة الحجاب لدى المرأة الجزائرية أقصى حملاتها النفسية . وكان هذا ، هنا وهناك يقوم اذن مقام «الانقاذ» لبعض النساء الائي كن غير محجبات شكلا .

وكانت هؤلاء النساء الخاضعات للتجربة يمضين وسط المجتمع الأروبي الجزائري بوجوههن العارية وأجسامهن المتحررة كعملة مالية صعبة . وكان يخيم حول هاتيك النساء جو المبادرة ، اذ يبرز الأروبيون المتحمسون والمنتصرون بكل هذا النوع من التعديل الذي يغمرهم ، ظواهر نفسية أشبه ما تكون بالظواهر النفسية التي تقترن بعملية التحول الديني .

ويشرع المسؤولون عن السلطة ، في تقوية ايمانهم في المرأة الجزائرية كعنصر من عناصر التأييد لنفاذ الحضارة الغربية الى المجتمع الجزائري الأصلي ، عقب كل مرحلة يسجلونها من مراحل نجاحهم . وكأنما كل حجاب يرتفع يعين الاستعماريين على استكشاف آفاق كانت حتى

ذلك الوقت ، مستحيلة بالنسبة اليهم وتظهر لهم الأبدان الجزائرية المتعرية جزءا جزءا .

وكانت امال رجل الاستعمار تتضاعف عشرات المرات بفعل العداء المستحكم من نفسه عقب كل وجه يتخلى عن نقابه . وكان الأمل ينبعث لدى المحتل مع كل امرأة جزائرية جديدة تتخلى عن الحجاب في مجتمع جزائري تحكمه انساق دفاعية في طريقها الى التحلل والتكشف والتراجع . وكان كل حجاب يسقط وكل جسد يتحرر من قيد الحجاب الحايك التقليدي وكل وجه يستسلم للنظرات الحادة الطامعة لدى رجل الاستعمار ، يعبر سلبا عن أن الجزائر تبدأ في الخضوع وتقبل مع كل حجاب يسقط الانضمام الى مدرسة السادة الحكام وتقر بتغيير عاداته بارشاد رجل الاحتلال وتحت اشرافه .

وقد رأينا كيف يدرك المجتمع الخاص بالمستعمرين وادارتهم حقيقة الحجاب . وقد اجملنا الصورة الديناميكية التي اتبعتها السلطات في جهودها من أجل الصراع على أكثر من جبهة سواء كنظام شامل أو كمجموعة من صور المقاومة التي نماها المجتمع الأصلي المحتل .

ولعله من الممتع أن نتابع ، على مستوى الفرد

الأروبي على وجه الخصوص ضروب السلوك العديدة الناشئة عن وجود الحجاب ، أي المتولدة عن ذلك الأسلوب الأصيل الذي اختصت به المرأة الجزائرية في أن تكون حاضرة أو غير حاضرة .

ولكن ما هي الانطباعات التي أمكن تسجيلها لدى الشخص الأروبي الذي لم يأخذ على عاتقه مباشرة عملية التحويل العقائدية ؟

ويبدو لنا الموقف المسيطر كضرب من الاغراب الرومانتيكي المشبع بحسية قوية . فالحجاب أولا وقبل كل شيء يستر جمالا . تلك احدى الأفكار التي كان قد قدمها لنا أحد الأروبيين العابرين في الجزائر من بين عدد من الأفكار الأخرى الموحية بذلك الرأي .

وكان قد أمكنه أن يتعرف على بعض الجزائريات غير المحجبات اثناء قيامه بممارسة مهنته في المحاماة وكان يقول عن الجزائريين انهم مذنبون عندما يقومون بتغطية كل هذا القدر من الجمال الفريد ولا بد أن يقوم الشعب ، عندما يمتلك (هكذا ظن هذا المحامي) مثل هذا القدر من انواع النجاح والكمال في الطبيعة ... لا بد أن يقوم هذا الشعب باظهار وعرض هذا كله

واذا اقتضى الأمر ـ هكذا قال ـ علينا أن نتمكن من أن نلزمهم بأن يفعلوا ذلك .

وكان ما يشاهده الأروبيون في الترام والقطار من خصلة الشعر الظاهرة وبعض جوانب الجبهة مما ينبيء بوجه «مروع» : كان هذا كله يخاطب ايمان الرجل الأروبي في وضعه اللامعقول ويقويه ، بأن المرأة الجزائرية هي سيدة كل النساء بلا مراء غير أن عداء الرجل الأروبي الذي كان بالمثل قد تبلور وبلغ درجة التوتر في العنف ازاء المرأة هو البرهنة على ما لها من جمال وكشف اسرارها وتحطيم مقاومتها ودفعها الى ان تصبح في متناول اليد عند المغامرة .. ذلك ان اخفاء الوجه هو أيضا اخفاء للسر بل وخلق لعالم من الأسرار والاستار. وعاش الرجل الأروبي في اضطراب وبصورة معقدة جدا كل صلاته بالمرأة الجزائرية وتجسم ذلك في ارادته في أن تصبح تلك المرأة في متناول اليد وفي رغبته في أن يجعل منها شيئا عابرا يملكه .

وتلك المرأة الجزائرية التي ترى ولا ترى كانت تحبط رجل الاستعمار وتخيفه لعدم وجود تقابل متبادل . فهي لا تذعن ولا تعطي نفسها ولا تستسلم . واعتاد الرجل الجزائري وضعا معينا واضحا في مجموعة ازاء المرأة الجزائرية .

فهو لا يراها بل وتكاد تسيطر عليه ارادة دائمة في ان لا يستشعر هيئة المرأة وفي ألا يلتفت الى النساء . وعلى ذلك لا يوجد لدى الجزائري سواء كان في الطريق العام أو في شارع صغير ، ذلك السلوك الخاص باللقاء بين الجنسين كما يوصف عادة على مستويات النظرة والخيلاء والمظهر العضلي والاختلافات السلوكية المضطربة التي اعتدناها في ظاهرية اللقاء .

ولكن الرجل الأروبي في مواجهته للمرأة الجزائرية يتطلع للرؤية ، ولذلك يتميز موقفه برد فعل بطريقة عدائية امام هذا التحديد لأبصاره . ولذا يتطور كل من الاحباط والعداء في انسجام تام .

ويظهر العداء أول ما يظهر ، في الأوضاع غير الثابتة من الناحية البنيوية وفي مواد الأحلام التي يقدم الأروبي السوي (المصاب باضطرابات عصبية مرضية) الدليل على وجودها بلا مبالاة [1] .

---

(1) يحسن أن نشير الى الوضع الغالب وبخاصة عند الأروبيات فيما يتعلق بمجموعة خاصة من النخبة التي بلغت درجة من التقدم . فبعض النساء الجزائريات غير المحجبات يحققن وجودهن كغربيات كاملات بسرعة مذهلة وبسهولة لا يتخللها الشك .

وتشعر النساء الأروبيات بشيء من الحرج أمام هؤلاء النساء فكن يشعرن

وفي العادة يسمع الأطباء الأروبيون في نهاية استشاراتهم الطبية مثلا آخر النهار ، وهم يعبرون عن خيبة أملهم . فالنساء اللائي يكشفن عن حجابهن أمامهم هن نساء تافهات ... وغير مهذبات ... ولا يوجد في الحقيقة الا احاطتهن بهالة من الاسرار ، ويجري التساؤل عم يخفين .

وتنظم السيدات الأروبيات الصراع في قليل جدا من الحذر ، وهن يؤكدن في جدية أن المرء لا يكشف عما هو جميل ويبررن هذه العادة العربية بأنها ارادة نسائية بكل معاني الكلمة ، لاخفاء العيوب . ويمكن هنا مقارنة استراتيجية المرأة الأروبية التي تهدف الى الأناقة

بانطباع مماثل لانطباعهن بالاحباط والتخوف ازاء الوجه المكشوف وازاء ذلك البدن الناهض بدون خلل بالذوق وبدون تردد والمليء بالتحدي. ان الجزائرية التي تصطنع حياة المرأة الأروبية لم تفتقد ذلك الرضى في توجيه التطور وتصحيح أخطاء السفور ، ولكنها شعرت بأنها في خطر من حيث اللطافة أي بعبارة أخرى من حيث التنافس من جانب ذلك ... وقد استطاعت المرأة الجزائرية وقد جددت مظهرها وصارت محدثة في احترافها وكالمبتديء الذي تحول الى ملكي أكثر من الملك . استطاعت أن تهز وضع المرأة الأروبية ، ولم يكن لهذه الأخيرة من مصدر تعتمد عليه سوى اللحاق بالرجل الجزائري الذي رفض المحجبات بشراسة .

وكانت الأروبيات يقلن : «أن أولئك السيدات غير المحجبات هن أيضا لا أخلاقيات بل وسفيهات» ولم يكن يمكن أن ينجح التكامل فيما بينهن الا بنوع من الرعوية المتصلة المقبولة .

والجمال واعطاء الأشياء قيمتها (التجميل وترتيب الشعر والموضة) باستراتيجية المرأة الجزائرية التي تفضل الاحتجاب والتستر وتنمية الشك والرغبة لدى الرجل ، ومن جانب آخر يمكن الذهاب الى أن ثمة ارادة خداع حول «السلعة» وما اذا كنا لا نقع في خديعة أثناء لحظة تغليف هذه السلعة مما يعدل فعلا من طبيعتها وقيمتها . وتحدد لنا مادة الأحلام التي يوفرها الأروبيون موضوعات أخرى مفضلة وأفكار مميزة . وقد اشار «جان بول سارتر» في كتابه عن أفكار حول المسألة اليهودية «انه على مستوى اللاشعور تعبق المرأة اليهودية دائما على وجه التقريب برائحة الانثى في الاصطياد والاغتصاب» .

وقد ساعد تاريخ الغزو الفرنسي في الجزائر ، المتعلق بالحملات المباغتة للقوات في القرى والمصادرة للثروات والممتلكات واغتصاب النساء ونهب البلاد ، ساعد كل هذا على ايجاد وبلورة نفس هذه الصورة الديناميكية . ويخلق استحضار تلك الحرية المخولة «للسادية» التي يتمتع بها الغازي المحتل في شهوته الجنسية .. يخلق هذا الاستحضار على مستوى هذه الادراج النفسية عنده كمحتل ، عددا من الهفوات والنقاط المثمرة التي يمكن ان تبزغ فيها دفعة وحدة ضروب من السلوك الاحتلالي

بل وضروب من السلوك الاجرامي في بعض المناسبات . وهكذا بقي اغتصاب المرأة الجزائرية في حلم الرجل الأروبي مسبوقا دائما بتمزيق الحجاب . ونشهد ها هنا عملية مزدوجة من عمليات فض البكارة وبذلك لا يصبح سلوك المرأة على الاطلاق نوعا من التأييد أو القبول بل من الخنوع والامتثال .

وفي كل مرة يلتقي فيها الرجل الأروبي الذي تسيطر عليه الأحلام ذات المضمون الجنسي بالمرأة الجزائرية تتبدى خصوصيات علاقاته بالمجتمع الجزائري المستعمر ولا تجري أحلامه لا على المستوى العشقي الجنسي ولا حتى بنفس الايقاع الذي يتوفر لدى أولئك الذين يقحمون المرأة الأروبية في الأمر .

ولا توجد غلبة تدريجية أو حياء متبادل فيما يتعلق بالمرأة الجزائرية وانما يوجد تعامل على دفعة واحدة بأقصى العنف والتملك والاغتصاب وما يشبه القتل . ويكتسي الفعل ازاءها بقسوة وبسادية شبه عصابية حتى لدى الأروبي السوي ، وهذه القسوة وتلك السادية هما مو يوضحه ، فضلا عن ذلك ، الوضع المتخوف لدى المرأة الجزائرية . وفي الحلم تصرخ المرأة كضحية وتدافع عن

نفسها كأنثى الابل ولكونها بلا أخطاء وبلا وعي تتعرض للهزيمة وتغلب على أمرها وقد تمزقت تمزيقا .

ويجدر بالمثل أن نبرز فيما بين مواد الأحلام طابعا يبدو لنا ذا أهمية .

فالأروبي لا يحلم اطلاقا بامرأة جزائرية انفرد بها على حدة . وفي المرات القليلة النادرة التي يتحقق فيها اللقاء في صورة زوج لا تلبث ان تتحول لحظات اللقاء بسرعة بفعل الهرب اليائس للمرأة التي لا تجد مفرا من سوق الذكر وسحبه الى حظيرة من النساء . فالاروبي يحلم بمجموعة من النساء وبحقل من النساء مع استحضار فكرة الخدر والحريم وهما موضوعان غريبان متمركزان بقوة في اللاشعور .

وتمثل قسوة الأوربي وعدائيته عن نفسها في اعتبارات خاصة بأخلاق المرأة الجزائرية ويتحول خجل المرأة الجزائرية وتحفظها وفقا لقوانين مبتذلة من علم النفس النزالي الى ضدها ، وتصبح الجزائرية متصفة بالنفاق والفسق أو بعبارة أخرى شخصية نمفاوية حقيقية أي ذات شراهة جنسية ملحوظة .

وهكذا رأينا بسرعة استراتيجية الاستعمار في خلق التحلل داخل المجتمع الجزائري على مستوى الافراد ،

ورأينا ان هذه الاستراتيجية كانت تعطى المكانة الاولى في اهتمامها الى المرأة الجزائرية . وكان لتعطش الرجل المستعمر وشراهته مناهج في الصراع تذهب كلها بطبيعة الحال مذهبا يثير ضروبا من السلوك كردود فعل لدى الشعب الخاضع للاستعمار . وكان هذا الأخير يتجه عند مواجهته للعنف المتبع لدى جنود الاحتلال الى حد تحديد وضع مبدئي ازاء عنصر كامن في نوعية الثقافة للمواطن الأصلي منذ القديم . وذلك هو الغضب الخاص بجنود الاستعمار بسبب رغبتهم في سفور المرأة الجزائرية وذلك أيضا هو مغامرته من أجل كسب النصر بأي ثمن فيما يتعلق بالحجاب ، وكلاهما سوف يثيران كل كوامن الشخصية الجزائرية الأصيلة . وتعطي الأقوال العدائية الخالية من الضوابط التي يتفوه بها جنود الاستعمار حول مسألة الحجاب حياة جيدة لهذا العنصر الكامن . الساكن سكون الموت في شخصية المواطن الأصلي الجزائري لأنه ظل مستقرا بلا تطور من حيث الشكل ومن حيث التلوين حتى أصبح زادا ثقافيا جزائريا . وهنا نجد من جديد واحدا من قوانين علم النفس الاستعماري . ولأول وهلة يبدو ان الفعل هو السبب أو هي جملة المشروعات والاهداف الخاصة بالجنود المستعمرين التي تحدد مراكز

المقاومة التي تنظم من حولها ارادة الخلود عند شعب من الشعوب .

ان الرجل الأبيض هو الذي يخلق الرجل الزنجي ، ولكن الزنجي هو الذي يخلق مشكلة الزنوج أي جملة الخصائص الزنجية أمام الرجل الأبيض. ولم يلبث ذلك المواطن الخاضع للاستعمار ان قابل الاعتداء الاستعماري حول مشكلة الحجاب بالتمسك بالحجاب . وهكذا يتخذ هذا العنصر الذي كان غير مميز في مجموعة متجانسة طابع التحريم بحيث يصير وضع مثل هذه المرأة الجزائرية في مواجهة الحجاب يرتد دائما الى الوضع الشمولي في مواجهة المستعمر الأجنبي . ويقوم المواطن الذي يخضع للاستعمار برد فعل على نحو عنيف جدا أمام الالحاح المستمر من قبل المستعمر الأجنبي على هذا القطاع أو ذاك من قطاعات التقاليد ، وتقوم الاهتمامات بتعديل هذا القطاع بالذات والعاطفية الانفعالية المضادة من جانب الغازي المحتل في عمله التربوي وكل دعواته ومطالبه وتهديداته ، تقوم هذه كلها باعداد نسيج حول العنصر المفضل من عالم حقيقي من ضروب المقاومة .

وكان تمسك الغازي المستعمر وعناده حول هذا العنصر المحدد يستلزم انزال الهزيمة به في شكل مشهدي

على مرأى ومسمع من الجميع ، أي التمسك على الخصوص بهذا «التعايش» بين أبعاد الصراع والحرب الخفية وهذا خلق الجو المناسب للسلام المسلح . ويتعرض موقف المرأة الجزائرية والمجتمع القومي الأصلي فيما يتعلق بالحجاب لتعديلات هامة أثناء صراع التحرير . وتكمن اهمية هذه التجديدات في انها لم تكن في أي وقت من الأوقات متضمنة في برنامج الصراع . ولم يفترض مذهب الثورة والأوقات ولا استراتيجية الكفاح على الاطلاق أية مراجعة للتصرفات ازاء مسألة الحجاب . ويمكن التأكيد بادئ ذي بدء أن مثل هذه المسائل لن يثيرها أحد في الجزائر المستقلة لأن الشعب قد فهم من خلال ممارسته الثورية ان المشاكل انما تحل داخل نطاق الحركة نفسها التي تطرحها .

وقد قاد الكفاح الرجال وحدهم حتى سنة 1955 وفرضت خصائص الكفاح الثورية وضرورة السرية المطلقة على كل موال لها ان تبقى زوجته في جهل تام بالموضوع . وبدأت المشاكل المستحدثة تظهر شيئا فشيئا في عملية تكيف العدو مع صور الكفاح بشكل استدعى حلولا مبتكرة . ولم يكن قرار قبول المناضلات من النساء كعناصر فعالة في الثورة الجزائرية أمرا ميسورا . اذ كان على مفهوم

الكفاح نفسه أن يتعرض للتعديل بعض الشيء . وأدت وسائل الارهاب التي استخدمها العدو المحتل وشراسته وتعلقه المفرط بالأرض القومية الى اتخاذ القيادات لبعض القرارات التي لا تعمل على استبعاد صور معينة من صور الكفاح . ولم يلبث الالحاح بضرورة الحرب الشاملة ان يستشري شيئا فشيئا. غير أن تشغيل النساء لم يكن يتفق وحسب مع الرغبة في تجنيد مجموع الأمة ، بل كان ينبغي كذلك توحيد الجهود توحيدا منسقا في اشتراك المرأة في الحرب وفي احترام النمط المعتاد للحرب الثورية . وبعبارة أخرى كان على المرأة أن تستجيب بنفس روح التضحية التي استجاب بها الرجال . وكان من الضروري اذن ان تعطى المرأة نفس الثقة التي تتطلبها من الأشخاص المشايعين المتحمسين الذين كانوا يتعرضون للسجن مرات عديدة . وكان من الضروري أيضا مطالبة المرأة بالتربية الخلقية وبقوة نفسية غير عادية وان كان بعضهن قد تردد ترددا كاملا . وقد اتسعت دوائر العمل الثورية اتساعا ملحوظا ومضى جهاز الثورة بايقاع محدد . وكان من الضروري أن يطرأ التعقيد على الجهاز أي أن تتزايد شبكاته بغير احداث أدنى تغيير في فعاليته . وما كان يمكن استعياب السيدات كمجرد قطع غيار ،

بل كعنصر قادر على أن يستجيب استجابة متكافئة مع المهام المستحدثة .

وأعانت السيدات في أعماق الجبال كل مقاتل اثناء استراحته أو أثناء نقاهته عقب اصابته بجروح أو بمرض التيفوئيد في مسرح المعركة غير أن القرار بادماج المرأة كعنصر رئيسي ودفع الثورة الى الاعتماد على جهودها وعلى نشاطها في هذا القطاع أو ذاك ، كان كما هو واضح بمثابة وضع ثوري شامل ، وكان تعقيد الثورة الى هذا الحد اعتمادا على نشاط المرأة بمثابة القطع برأي له أهميته .

غير أن مثل هذا القرار قد لاقى صعوبات لأسباب عديدة . فقد رأينا المجتمع الجزائري ، والنساء بالذات . يملن أثناء طول فترة الاحتلال التي لم يقم ضدها أي اعتراض الى تحاشي رجل الاستعمار اذ أن عناد هذا الأخير واصراره في مشروعه بشأن سفور المرأة وبتحويلها الى حليف في عملية الهدم الحضارية ادت الى تقوية أنواع السلوك التقليدية . وقد كان لهذه الأنواع من السلوك ، بطبيعة الحال ، بعض الآثار السلبية على الرغم من كونها ايجابيات فعالة في استراتيجيات المقاومة ضد فعل رجل

الاستعمار التخريبي . والمرأة وبخاصة تلك التي تعيش في المدن تفتقر عادة الى بعض الصبر وبعض الثبات . ولما كان عليها ان تستغل مجالات ضيقة فقد ظل جسمها غير مزود بالحركية العادية وجها لوجه امام ذلك الافق اللانهائي من الشوارع والأرصفة الضيقة والمنازل والسيارات والأشخاص الذين ينبغي ازاحتهم أو صدهم ... هذه الحياة المثقفة نسبيا وذات التحركات المعروفة والمحسوبة والمنظمة سلفا تعرض كل ثورة مفاجئة للارتهان بصورة خطيرة .

وكان الرؤساء السياسيون يعرفون مثل هذه الأحداث الفريدة من نوعها معرفة كاملة ، ولم يكن ترددهم في الأمر الا تعبيرا عن الوعي الذي كانوا يملكونه ازاء مسؤولياتهم ، وكان من حقهم ان يشكوا في نجاح هذا الاجراء. اما كان يمكن ان يترتب على مثل هذا القرار أحداث خطيرة تؤثر في سير الثورة تأثيرا فاجعا ؟

وانضاف الى هذا الشك عنصر آخر له أهمية كذلك فقد صار المسؤولون يترددون في تشغيل النساء وتجنيدهن لمدى علمهم بفضاعة رجل الاستعمار وشراسته . ولم يكن المسؤولون عن الثورة يغالطون أنفسهم أدنى مغالطة فيما يتعلق بقدرات العدو الاجرامية ، اذ كان هذا العدو

مجموعة من الأفراد خريجي السجون أو من أولئك الذين دربوا مع المفلتين من المعسكرات أو من الخلايا المساعدة للبوليس الجنائي الفرنسي . ولم يكن من بينهم واحد يجهل حقيقة أن كل امرأة جزائرية ستتعرض اذا قبض عليها للتعذيب حتى الموت . ومن الميسور نسبيا أن يلتزم المرء بنفسه في هذا الطريق وأن يتقبل من بين كل العوارض المختلفة فكرة أن يموت بالتعذيب ولكن الأمر كان أكثر صعوبة عندما كان ينبغي تعيين الشخص الذي يخاطر بتقبل هذه الموت بطريقة مؤكدة بشكل ظاهر . بيد انه كان ينبغي التصميم على دخول المرأة في الثورة وكانت المعارضات الداخلية بالجملة كما كان كل قرار من هذا القبيل يثير نفس التردد ويؤدي الى خلق هذا النوع من اليأس نفسه .

ولم يملك المراقبون امام هذا النجاح الغريب لهذه الصورة الجديدة من الكفاح الشعبي ، لم يملك هؤلاء المراقبون الا أن يضعوا نشاط المرأة الجزائرية في مصاف نشاط بعض بطلات المقاومة أو حتى بعض العملاء السريين في الخدمات الخاصة . وينبغي على الدوام ان نستحضر في اذهاننا هذه الحقيقة ، وهي ان المرأة الجزائرية التي اشتركت في الثورة والتزمت بها قد تعلمت بالغريزة دورها

كامرأة وحيدة في الطريق العام ورسالتها الثورية في وقت واحد . ولم تكن المرأة الجزائرية عميلة سرية وانما اعتادت أن تخرج الى الطريق العام بدون تعلم وبدون تحضر وبدون تاريخ ، وهي تحمل في حقيبة يدها ثلاث قنابل أو تقريرا عن النشاط محفوظا بمكان خاص في طيات ثدييها . ولم تكن تعرف ذلك الاحساس بأنها تلعب دورا مقروءا مئات المرات في الروايات ، أو مشاهدا في السينما . ولم يكن لديها شيء من ذلك العامل الحركي أو هذه الفاعلية في المحاكاة التي تغلب دائما على وجه التقريب على هذه الصورة من العمل عندما تدرس للمرأة الغربية .

فلم يكن دورها دور ابراز شخصية معروفة ومألوفة ألف مرة في الخيال أو في القصص بل ذلك نوع من الميلاد الحقيقي ، في حالة النقاء بلا اعداد أو تمهيد . فلم يكن ثمة شخصية ينبغي محاكاتها . لقد كان ثمة ، على العكس من ذلك ،نوع من المأساوية الشديدة واختفاء تام لأدنى فرق بين المرأة والثائرة ، اذ تقفز المرأة الجزائرية دفعة واحدة الى المستوى التراجيدي[1] .

---

(1) نحن نذكر هنا فقط الوقائع المعروفة لدى العدو .. ونحن نصمت اذن الأشكال الجديدة للنشاط الذي اختارته نساء الثورة . فمنذ سنة 1958

وكان كل ما يجري من تضاعف الخلايا الثورية التابعة لجبهة التحرير الوطني الجزائرية واتساع رقعة المهام الجديدة والشؤون المالية والارشادات والتوجيهات المضادة والتكوين السياسي وضرورة تأسيس خلية معينة للتدريب واعداد ثلاث أو أربع خلايا أخرى في نفس الوقت للحلول محلها ، اذا لزم الأمر وقوات الاحتياط القادرة على النزول الى المعركة عند أبسط اشارة انذار تتعلق بالخطة الأولى ... كان كل هذا يلزم المسؤولين بالبحث عن عناصر أخرى من أجل اكمال مهمات فردية بصفة قاطعة . وعندما تعددت المقابلات الأخيرة بين المسؤولين وبالذات أمام الحاح مشاكل الحياة اليومية التي فرضتها الثورة ، صدر القرار بتشغيل العنصر الأنثوي في الصراع القومي تشغيلا عينيا .

ويجب أن نلح مرة أخرى كذلك فيما يتعلق بالطابع الثوري الخاص بذلك الرأي النهائي . في البداية لم تشترك سوى النساء المتزوجات ولكن لم تلبث هذه الاحتياطات

في الواقع ، ادت التعذيبات التي أنزلت بشخصيات النساء المشايعات للثورة ، الى اشعار الرجل الاستعماري المحتل بتكوين فكرة عن استراتيجيات المرأة . أما اليوم فقد ظهرت وبزغت اقتباسات روائية جديدة . وبالتالي فنحن نفهم اليوم اذن ما أسكتنا عنها .

ان استبعدت بسرعة ووقع الاختيار أولا على زوجات الرجال العاملين في جيش التحرير . ثم لم يلبث أن وقع الاختيار على الأرامل أو المطلقات . ولكن بأي حال من الأحوال لم يسمح للبنات الابكار بالعمل وكان سبب ذلك أن الفتاة الشابة حتى لو بلغت عشرين أو ثلاثة وعشرين سنة من عمرها قلما كان يسمح لها بالخروج منفردة من بين الأسرة . أما واجبات الأم أو الزوجة والقلق بشأن حصر النتائج المحتملة فيما يتعلق بالقبض عليها وموتها في أضيق نطاق ممكن وكذلك تطوع العدد المتزايد من الشابات ، كل هذا دفع المسؤولين السياسين الى التنازل واستبعاد كل تحفظ واتخاذ موقف متعادل امام مجموعة من النساء الجزائريات .

وأثناء ذلك كانت المرأة كضابطة اتصال أو حاملة منشورات متقدمة على بعد مائة متر أو مائتين امام أحد المسؤولين في تحركاته . كانت تلك المرأة لا تزال محجبة ولكن ابتداء من فترة معينة لم تلبث عجلات الصراع أن امتدت نحو المدينة الأروبية . ولم تلبث أرضية «القصبة» الواقية وستائر الأمن العضوية تقريبا ، التي كانت المدينة العربية تنسجها حول المواطن الأصلي ، أن تراجعت كلها واندفعت المرأة الجزائرية بلا غطاء دفاعي نحو مدينة

الغازي المحتل . وبسرعة مذهلة تتخذ لنفسها سلوكا في الاعتداء لا يمكن تصوره . واعتاد ابن البلاد المحتلة عندما يشرع في عمل ضد رجل الاستعمار الباغي ، وعندما يمضي هذا البغي في صور العنف الحامي المستمر كما هو الأمر في الجزائر ، أن يقوم بالتغاضي عد عدد هام من المحظورات . فالمدينة الأروبية ليست سوى الامتداد الخاص بمدينة السكان الأصليين ولم يكن المستعمرون قد استقروا وسط الوطنيين وانما احاطوا بمدينتهم ونظموا الحصار حولها .

بحيث كان كل خروج من القصبة في العاصمة ينتهي الى حيث يوجد العدو ، وكان الأمر بالمثل في كل من قسنطينة ووهران والبليدة وبون (عنابة) .

وكان هناك تناسق بين مدن المواطنين الأصليين في وضعها داخل كلابات العدو الغازي ولزم أن تتوفر الخطوط العمرانية الخاصة بالمدينة في المستعمرة مع وضع تقديرات السلطات العسكرية لقوات الاحتلال موضع الاعتبار. وبهذا يمكن ان تتضح لنا الصرامة التي كانت تنتظم بها عملية اخماد مدينة المواطنين الأصليين وتجمعات السكان من الأهالي .

ولم تكن الشابة الجزائرية على وجه الخصوص تخاطر الا قليلا في المدن الأروبية اللهم الا تلك النساء العاملات في البيوت لدى الغازي المستعمر وهن اللائي يطلق عليهن رجل الاستعمار اسم «الفاطمات» وظلت كل تحركات المرأة الجزائرية تقريبا خارج المدينة الأوربية . وكانت تحركاتهن في المدينة العربية منحصرة في أضيق نطاق ممكن وفي المرات النادرة التي كانت الجزائرية تغادر فيها المدينة فقد كان ذلك يتم بمناسبة حادثة ما استثنائية (كموت أحد الأقارب الذين يسكنون موقعا مجاورا) واما غالبا لأداء زيارات تقليدية فيما بين الأقارب بعضهم البعض بمناسبة الأعياد الدينية . واما بمناسبة الحج حيث كانت السيارات في هذه الحالة تجتاح المدينة الأروبية في الصباح المبكر غالبا وكان على الجزائرية الشابة فيما عدا بعض الطالبات النادرات (ممن لم يكن اطلاقا بنفس التحرر السلوكي الميسور عند قريناتهن من الأروبيات) كان عليها ان تجتاز المدينة الأروبية وان تتخطى عددا مضاعفا من الممنوعات الداخلية ومن المخاوف المنظمة ذاتيا ومن الانفعالات . وكان عليها في وقت واحد ، أن تواجه عالما عدائيا على وجه الخصوص ، وهو عالم المعتدي المحتل وقوات الشرطة المعبأة المتيقظة الفعالة وكان

على الجزائرية في كل مرة تدخل فيها الى المدينة الأوروبية . ان تنتصر على نفسها وعلى مخاوفها الطفولية وكان عليها أن تستعيد صورة الغازي المحتل المعلقة في مكان ما في عقلها وبدنها وأن تستعيد تشكيلها بل وان تمهد للعمل الرئيسي في تنحية هذه الصورة وابطال قيمتها وانتزاع وقاحتها وازالة كل ما علق منها في أوهام الناس .

والواقع ان كل الملصقات بالعدو والاستعمار التي بدأت أول الأمر بصفة ذاتية بحتة هي نتيجة لانتصار المواطن المحتل على فزعه القديم وتخوفه ويأسه المستقطر يوما بعد يوم عن طريق الاستعمار الذي استقر في «منظور من الأبدية» .

وفي كل مرة يتحقق فيها استدعاء الشابة الجزائرية كانت تنشىء اتصالا جديدا . فالجزائر العاصمة لم تكن المدينة العربية وانما كانت منطقة مستقلة بداخلها كأنها الجهاز العصبي لكل استعداد .

وكانت وهران وقسنطينة تنميان ابعادهما فلا يلبث الجزائري وهو يخوض الصراع ، أن يحل خناق الكلابة التي تعتصر مدن السكان الأصليين . واستطاعت الثورة من نقطة لأخرى في الجزائر العاصمة بين حي رويسو (العناصر

وحي حسين داي وفيما بين حي الأبيار وشارع ميشلي (شارع ديدوش مراد) استطاعت الثورة في كل هذه الأماكن أن تخلق اتصالات جديدة ، وكان على المرأة الجزائرية الشابة ، أن تقوم بهذه المهام ، بنسبة تتزايد من يوم لآخر .

وكانت تحمل الرسائل والأوامر الشفاهية المعقدة وكانت تضطر أحيانا الى حفظها عن ظهر قلب مهما تكن درجة تعليمها البسيطة الى حد الانعدام ، وبهذه الصورة كانت بعض المهمات من ذلك النوع توكل الى المرأة الجزائرية .

ولكن كان عليها أيضا أن تقوم بالمراقبة ساعة كاملة وأكثر من ساعة أحيانا أمام منزل يقع فيه لقاء بين مسؤولين .

وخلال هذه الدقائق التي لا تنتهي حيث كان عليها ان تتحاشى البقاء في مكان واحد خشية لفت النظر ، وتحاشي الابتعاد كثيرا بحكم حمل مسؤولية أمن الأخوة الموجودين بالداخل ، كانت تجري أثناء هذه اللحظات اللانهائية بعض المشاهدة التراجيدية والمضحكة معا . هذه الشابة الجزائرية التي تتهادى على الأرصفة بلا حجاب سرعان ما كانت تلفت نظر الشباب بذهابها ومجيئها

على نحو ما يحدث بين الشباب في العالم كله ولكن باستثناء واحد وهو ما يترتب على فكرة تنشأ عادة عند رؤية المرأة الجزائرية السافرة وهي أفكار غالبا ما تكون قبيحة وقحة مزرية . وكان ينبغي عند حدوث مثل هذه الأمور ، اقفال الفم والتحرك بضعة امتار للتخلص من المارة الذين يلفتون النظر نحو الشخص وممن يدفعون المارة الآخرين اما الى تقليدهم أو الدفاع عن الشخصية المطاردة . وكانت المرأة الجزائرية تتحرّك أحيانا وهي تحمل مبلغا يعادل عشرين أو ثلاثين أو أربعين مليونا من الفرنكات التي تخص الثورة في حقيبة يدها أو في شنطة صغيرة حتى توصلها الى أصحابها من ذوي الحاجات كأسر المسجونين أو لشراء أدوية طبية أو مأكولات للمقاتلين في الميدان .

وقامت المرأة الجزائرية بهذا الجانب من الثورة في ثبات وسيطرة على نفسها ونجاح لا يصدق ، وعلى الرغم من الصعوبات الداخلية والذاتية، وعلى الرغم من عدم التفاهم العنيف أحيانا من قبل الأسرة ، أخذت المرأة الجزائرية على عاتقها كل تلك المهام .

غير أن الأمور لا تلبث أن تتعقد شيئا فشيئا . فالمسؤولون الذين يتحركون ويحتمون بالسيدات المرشدات والشابات

الموصلات لم يكونوا كمجرد رجال جدد من السياسيين الذين كانوا لا يزالون مجهولين لدى قوات البوليس بل على العكس بدأ في المدن انتقال القواد العسكريين المسؤولين الأصليين . وكان أولئك من المعروفين الذين يبحث عنهم الاستعمار في كل مكان . ولم يكن هناك رئيس قسم من أقسام البوليس لا يملك صورهم على مكتبه .

وكان هؤلاء العسكريون المتنقلون والمجاهدون يحملون أسلحتهم في صورة مدافع رشاشة ومسدسات وقنابل وفي بعض الاحيان كان كل ذلك دفعة واحدة . ولولا العديد من الشكوك ما كان المسؤول السياسي يذهب الى حد الاذن لهؤلاء الرجال ممن كانوا لا يقبلون أن يتحولوا الى سجناء ، بأن يسلموا كل أسلحتهم إلى الشابات المكلفات بتقديمهم الى موضع اللقاء بشرط استعادتها مباشرة عندما يتعقد الموقف . وعلى بعد مائة متر كانت تقف شابة تحمل حقيبة بيدها ووراءها رجلان أو ثلاثة من ذوي المظهر البريء . وكانت بمثابة المصباح المضيء أو المقياس للمجموع وكأنها ايقاع الخطر . فيحدث توقف ثم انطلاق ثم توقف ثم انطلاق وسط سيارات الشرطة التي تتوالى في الاتجاهين فضلا عن الدوريات وغيرها وغيرها .

وكان العسكريون يعترفون من وقت لآخر عند نهاية

المهمة بأن الرغبة كانت تجتاحهم من أجل استعادة الأسلحة من شدة الخوف من الوقوع في كمين دون توفر الوقت الكافي للدفاع . وبهذه المرحلة تكون المرأة الجزائرية قد ذهبت الى أبعد مدى في لحمة الثورة وسداها . ولكن نشاطها لم يلبث ابتداء من سنة 1956 أن بدأ يتجاوز أبعادا ضخمة حقيقية . واضطرت ادارة الثورة الى أن تجيب ضربة بضربة على كل مجزرة يقيمها العدو للمدنيين الجزائريين في الجبال والمدن . فتطورت بعد ذلك ، بحكم رغبتها في تحاشي وصول الارهاب الى قلب الشعب ، في اتخاذ صور من الصراع كانت حتى ذلك الوقت مستبعدة . ولم يقم أحد بتحليل هذه الظاهرة بما فيه الكفاية كما لم يلح أحد في تأكيد الاسباب التي أدت بالحركة الثورية الى اتخاذ سلاح الارهاب بصورة مستوفاة .

لقد هم الارهاب اثناء المقاومة الفرنسية بتتبع العسكريين من الالمان القائمين بالاحتلال . أو بالتسلط على المواقع الاستراتيجية للعدو . وتعمد الارهاب في كل مكان استخدام نفس التقنيات اما بالهجمات على الافراد ، والاعتداء على حياتهم أو بالهجمات الجماعية بواسطة القنابل والانحراف بالقطارات عن قضبانها .

وفي الموقف الاستعماري وخاصة في الجزائر ، حيث كان التجمع السكاني الأروبي ذا أهمية كبيرة وحيث كانت الجيوش الوطنية قد احتلت مواقعها وحيث اشترك الممرض والبقال في النسق العقابي .. في هذا كله وأمام هذا كله وجد مسؤول الصراع نفسه يواجه موقفا جديدا بالمرّة .

فلم يكن ثمة شخص يأخذ القرار بسهولة لقتل أحد المواطنين في الطريق ، ولم يكن هناك شخص يوقف بلا مأساة من جانب الضمير وضع قنبلة في مكان عام .

وكان المسؤولون الجزائريون يفترضون مع كل ما كانت عليه كثافة الارهاب العقابي والطابع الالزامي للاضطهاد ، امكان الاستجابة بلا مشاكل ضميرية خطيرة للضربات كما كانوا يكتشفون ان الجرائم البشعة لا يمكن أن تكون عذرا كافيا لبعض القرارات .

وكان المسؤولون أحيانا كثيرة يرجعون عن مشروعاتهم وكان الأمر يبلغ بهم أحيانا الى استدعاء «الفدائي» المكلف بوضع القنبلة في آخر لحظة . وكان يوجد بالتأكيد بعض الذكريات عن مدنيين قتلوا أو جرحوا جراحا بالغة وراء هذه الترددات . وكانت ثمة مخاوف من جانب الشرطة

في عدم القيام ببعض الافعال التي تؤدي الى تغيير طبيعة قضية الحرية ، وكان هناك أيضا عامل الخوف على الأروبيين الذين عملوا مع الجبهة حتى لا تقع لهم بعض الأحداث وحتى لا تصيبهم الاعتداءات . وبالتالي فقد كان هناك قلق ثلاثي من أجل عدم الخلط في الايقاع بالضحايا الابرياء في بعض الأحيان ، وهو نفس القلق من أجل عدم اعطاء صورة فاسدة عن الثورة ، ومن أجل التمسك بتأييد كل أنصار الديمقراطية الفرنسيين في كل بلاد العالم وبخاصة لدى الأروبيين الجزائريين الذين اجتذبهم المثل الأعلى القومي الجزائري .

بيد أن مجازر الجزائريين وعناصر المجرمين المنشورين في الحملات كانت تقوى ضمانات المدنيين الأروبيين وتهيء الوضع الاستعماري وتؤيده وتزيد من الأمل في العالم الاستعماري .

وكان الأروبيون يستعيدون على أثر بعض الأحداث العسكرية التي كان يقوم بها الجيش الوطني الجزائري لصالح الكفاح الشعبي الجزائري موقفهم القديم المتمثل في صممهم ازاء عنصريتهم ووقاحتهم وفي كبريائهم القديم واحتقارهم التقليدي للآخرين .

واني لأذكر ذلك البيروقراطي الموظف في «بير تونه» الذي كان يلوّح يوم أسر الطائرة التي كانت تحمل اعضاء جبهة التحرير الوطني الخمسة ، من موقع عمله بصور هؤلا ء الأعضاء صارخا : «لقد أوقعناهم ، وسوف تقطع منهم الأشياء التي أتوقعها» .

وكانت كل ضربة توجه نحو الثورة وكل مجزرة ينفذها الخصم تقوى من شراسة الاستعماريين وتحزن كل أجزاء الوطن الجزائري .

وكان كل شيء يضيف الى الشعب ذلك الانطباع بانه قد سلب العناية ، تلك القطارات التي تحمل العسكريين الفرنسيين والبحرية الفرنسية في خليج الجزائر العاصمة وفليبفيل (سكيكدة) وهي تقوم بمناوراتها وتقذف بقنابلها . والطائرات النفاثة والجنود الذين يفاجئون الدواوير والمنازل والذين يقتلون الرّجال الجزائريين بلا عد وبلا حصر ، كان كل هذا يجري حول الشعب الجزائري ويشعره بأنه بلا حماية وان الأمور لم تتغير وأن الأروبيين ما زالوا يرتعون في الأرض ويفعلون كل ما يريدون .

وكانت تلك هي الفترة التي كان يسمع فيها الأروبيون في الطرقات وهم يعلنون : «لو أخذ كل منا عشرة منهم

وفتك بهم لحلت مشكلة الجزائر بسرعة فائقة» . وكان الشعب الجزائري وخاصة ذلك الشعب الذي يعيش في المدن ، يشهد تلك الوقاحة التي تفضح أمله ويشهد كذلك أن هؤلاء المجرمين الذين لا يخفون اجرامهم ، لا يلقون العقاب اللازم . ويمكننا في الواقع ان نسأل كل جزائري وكل جزائرية في المدينة فيعينون لنا بالاسم كل سفاح قاتل في المنطقة .

وكان الشك يداخل نفوس بعض ابناء الشعب ابتداء من لحظة معينة فيتساءلون ما اذا كان في الامكان حقيقة مقاومة اعتداءات الغازي المحتل كميا وكيفيا .

وهل تستحق الحرية إقحامها في هذه الدائرة الضخمة من الارهاب والردع ؟ ألا يعبر هذا الاختلال في التوازن عن استحالة الافلات من الاضطهاد ؟

وعلى الرغم من ذلك كان هناك جزء كبير آخر من الشعب يتحرق شوقا ويتطلع الى ايقاف كل المزايا التي يستفيد منها العدو عن طريق الارهاب ، ولم يكن هناك بديل عن القرار بضرب الخصم فردا فردا واسما واسما . وكانت أوضاع كل السجناء الذين زعم العدو عنهم أنهم «قتلوا وهم يحاولون الهروب» فضلا عن صرخات المعذبين كان كل ذلك يفرض اتخاذ صورة جديدة من صور الكفاح .

وبدأ التصويب نحو رجال البوليس ومواقع تجمع الاستعماريين (في مقاهي العاصمة ووهران وقسنطينة) أول الأمر . منذ ذلك الوقت أصبحت الجزائرية مشتبكة اشتباكا شاملا ، بعناد واصرار في العمل الثوري .

وكان على المرأة الجزائرية ان تحمل القنابل والمسدسات في حقيبتها حتى يتسلمها منها أحد الفدائيين في اللحظة الأخيرة أمام إحدى الحانات أو عند أحد الممرات الخاصة بالمجرم المقصود . وفي خلال تلك الفترة كان الجزائريون الذين يفاجئهم العدو في المدن الأروبية يتعرضون بلا رحمة ولا هوادة للاستجواب والقبض والتفتيش .

لهذا كان ينبغي متابعة الطريق الموازي لطريق ذلك الرجل وتلك المرأة ، أي هذا الزوج الذي يحمل الموت إلى العدو ويبعث الحياة في الثورة . وكان كل منهما يساند الآخر وان كان كل منهما غريبا بالنسبة للآخر . فكانت المرأة تتحول تحولا جذريا الى امرأة أروبية مليئة بالانطلاق والتحرر ، بما لا يسمح بالشك في شخصيتها ويغرقها اغراقا في الوسط الذي توجد فيه . في حين أن الآخر غريب متوتر ، يمضي في اتجاه مصيره . ولم يكن الفدائي ، الجزائري يغفل أو يتعاطى ما يغفل عينيه لحظة على عكس الفوضويين الذين اختل توازنهم واشتهرت اسماؤهم عن

طريق الأدب والفكر .. ولم يكن الفدائي بحاجة الى تجاهل الخطر أو الى بعث الغموض في وعيه أو الى النسيان .

«فالإرهابي» المقاتل يدع الموت ينفذ إلى روحه منذ اللحظة التي يقبل فيها المهمة فهو على موعد مع الموت على الرغم من ذلك ، ولكنه ، أي الفدائي على موعـد مع حياة الثورة وامتداد حياته هو ، فالفدائي ليس رجلا مضحى به ، انه لا يتراجع بالتأكيد أمام فرصة فقد حياته من أجل استقلال الوطن . ولكنه لا يقبل على اختيار الموت في أي لحظة . فإذا كان القرار قد تأكد بقتل محافظ الشرطة الذي يقوم بالتعذيب أو بقتل ذلك الرجل ذي المركز الرئاسي في مجموعة الاستعماريين . فمعنى ذلك أن هؤلاء الرّجال يقفون حجر عثرة في طريق تقدم الثورة . وكان «فروجيه» مثلا يشكل تقاليد استعمارية ومنهجا افتتح في البداية بمدينة سطيف وقالمة سنة 1945 . و «فروجيه» هذا هو أحد قادة المجموعة الاستعمارية وقد قتله أحد الفدائيين في نهاية 1956 . وكانت قوة «فروجية» المزعومة تبلور الاستعمار والاستغلال وتعطي الآمال الى أولئك الذين بدأوا يشكون في المتانة الحقيقية للنسق .

وكان الفدائي يعلم ذلك كما تعلمه المرأة التي رافقته في مهمته أيضا أي تلك المرأة حاملة الذخيرة .

وتتطور المرأة الجزائرية السافرة حتى تصبح حاملة مسدسات وقنابل ومئات من البطاقات الشخصية المزورة أو من المتفجرات كأنما تحولت الى سمك يعيش في مياه الغرب . وكان العسكريون ورجال الدوريات الفرنسيون يبتسمون لهن عند مرورهن ويوجهون اليهن التهنئات بما بلغته اجسامهن من الاكتمال والجمال هنا وهناك ، وان لم يكن يوجد اطلاقا من يشك في ان هذه الحقائب تحمل المدافع الرشاشة التي سوف تحصد عما قليل أربعة أو خمسة من اعضاء تلك الدورية .

وعلينا أن نعود قليلا الى هذه الشابة التي لم تخلع الحجاب الا بالأمس فقط لتتقدم نحو المدينة الأوروبية الحافلة برجال البوليس وبرجال المظلات وبالجنود المقاتلين . ولم تكن تمضي متوارية في الجدران كما كانت قد اعتادت أن تفعل قبل الثورة . ولما كانت الجزائرية تدعى دوما لتبتعد من طريق أحد اعضاء المجتمع الاستعماري الحاكم ، فقد تحاشت المشي في منتصف الرصيف الذي من حق أي انسان أن يمضي فيه اذا شاء في كل بلاد العالم .

وكانت اكتاف الجزائرية حرة في حركاتها ، كما كانت مشيتها مرنة متزنة ، لا هي بالسريعة ولا هي

بالبطيئة . وكانت ساقاها عاريتين لا يغلفهما الحجاب في انطلاقهما في حرية مع ارتفاع الأرداف في رشاقة .

وكان بدن الشابة الجزائرية في المجتمع التقليدي محكوما ببلوغ سن الزواج وبالحجاب . والحجاب يغطي البدن ويخضعه للنظام ويعالجه ويدفعه الى التوازن في اللحظة نفسها التي يكتشف فيها مرحلته في الفوران الكبير . فالواقع أن الحجاب يحمي مع اعطائه للثقة بالنفس والاحساس بالعزلة . ولا بد من سماع اعترافات الجزائريات أو تحليل مواد الأحلام الخاصة ببعض من تخلين عن الحجاب حديثا ، حتى نتبين أهمية الحجاب بالنسبة الى جسم المرأة الحي . وعندما يظهر عند المرأة الانطباع بدنها وقد انقسم الى أبعاض وتقاذف يمنة ويسرة ، تبدو أعضاؤها كأنها تتمدد الى ما لا نهاية . وعندما كان على الجزائرية أن تعبر الطريق ، كان هناك دائما تقدير مختل أثناء فترة طويلة لمدى المسافة التي ينبغي ان تقطعها ، وعندئذ يبدو البدن غير المحجب كما لو كان قد أفلت وتطاير قطعا قطعا . وهنا يحضرها الانطباع أنها ليست في زي لائق أي أنها قد صارت عارية . وذلك احساس بالقصور والنقص تستشعره بحدة شديدة . فيظل بخاطرها كنوع من الاحساس بنقص لشيء لا يبلغ الاكتمال .

وذلك هو الاحساس المخيف بعدم الاندماج ... وعلى ذلك فقد أدى اختفاء الحجاب عند الجزائرية الى بعث الاضطراب في تخطيطها البنيوي لبدنها . وكان عليها ان تخترع بسرعة ابعادا جديدة لبدنها . ووسائل جديدة لتحكمها العضلي . وكان عليها كذلك ان تخلق لنفسها طريقة خاصة بها في السير كامرأة - بلا حجاب - في الخارج . ولا بد من تحطيم أدنى خجل وأدنى خوف يتملكانها (لأن المفروض أن تلقى معاملة الأوروبية) مع تحاشي ان تكون ندا في المزايدة بالنسبة لغيرها وان تبالغ في الزينة مما يجتذب الانتباه . فالجزائرية التي تنزل الى المدينة الأروبية «عارية» تماما ، تتعلم من جديد صلتها ببدنها وتعيد وضعه من جديد بطريقة ثورية شاملة . وهذا الجدل الجديد فيما بين الجسد والعالم الخارجي رئيسي في حالة المرأة[1] .

---

(1) فالمرأة التي لم تكن تخرج من البيت اطلاقا قبل الثورة الا اذا صحبتها أمها أو زوجها وجدت نفسها تأخذ على عاتقها بعض المهام المحددة مثل التوجه من وهران الى قسنطينة أو الجزائر ، وكان عليها أن تمضي أياما كثيرة بمفردها حاملة توجيهات ذات أهمية قصوى بالنسبة للثورة ، فتأخذ القطار وتمضي لقضاء الليل عند أسرة مجهولة أوعند بعض مناصري الثورة . وحتى في هذا الجو ينبغي أن تكون حركاتها وتنقلاتها منسجمة لأن العدو يلاحظ ويراقب كل من يمضي بطريقة عشوائية خارج النسق المعتاد . وأهم ما نلاحظه هنا هو أن الزوج لا يقيم أية صعوبة

ولكن الجزائرية ليست في صراع ، مع بدنها وحسب ، فهي بالاضافة الى ذلك رمز جوهري في بعض الأحيان للتعبير عن الجهاز الثوري فهي تحمل الأسلحة وتعرف مواقع الاحتماء والوقاية العامة . وينبغي ان تفهم الانتصارات التي لا حد لها مما كان عليها ان تحققه على ضوء الأخطار العينية التي واجهتها حتى تبلغ طريق العودة وتبلغ المسؤول عند عودتها اليه : «انتهت المهمة .. ولم يحدث شيء غير عادي»[1] .

في طريق خروج زوجته بالمهمة ، وهو مزهو على عكس من ذلك بأن يذهب الى حد القول عند عودة ضابط الاتصال : «أترين لقد مر كل شيء بسلام أثناء غيابك» . ذلك أن الرجل الجزائري التقليدي الذي تميز بالغيرة القديمة وبالتشكك «الأسري» قد فقد كل هذا عند احتكاكه بالثورة . وينبغي أن نشير هنا أيضا الى أن المناصرين للثورة الذين كان يبحث عنهم العدو اعتادوا الاختفاء عند بعض مناصريها الآخرين ممن لم يكن الغازي المحتل قد تعرف عليهم . وفي هذه الأحوال كانت المرأة وحدها بالبيت طول النهار مع اللاجىء فتوفر له الغذاء وتحضر له الصحف والبريد ... ولم يظهر في لحظة من اللحظات في مثل هذه الحالة أيضا ، أي لون من ألوان التشكك أو التخوف . فالزوج أو الأب الذي التزم بالصراع واشتبك في القتال أصبح يرى منظورات جديدة حول العلاقات بين الجنسين . وكان المناضل يكتشف زميلته المناضلة ويرتبطان معا عند خلقهما لأبعاد جديدة .

(1) نحن نسعى هنا لاعطاء وصف للاوضاع وان كان ثمة بحث كامل يمكن أن يكتب حول دور المرأة في الثورة سواء كانت هذه المرأة في المدينة أو في الجبال أو داخل ادارات العدو أو المرأة التي خدمت بدنها ، والمرأة السجينة والمرأة

وهناك مشكلة أخرى تستحق أن نشير اليها وكانت قد ظهرت منذ الشهور الأولى التي بدأت فيها المرأة نشاطها الأنثوي وتتلخص هذه الصعوبة في أن المرأة الجزائرية كانت تتعرض لأن يشاهدها احد أقربائها أو صديق من اصدقاء الأسرة أثناء مرورها سافرة في احدى تحركاتها فكان الأب يخطر بالواقعة بسرعة ويتردد هذا الأخير بطبيعة الحال في تصديق هذه المزاعم ولكن تتضاعف التقارير ويؤكد أشخاص مختلفون أنهم شاهدوا «زهرة أو فاطمة سافرة وهي تمضي في الطريق كالـ ... يا الهي ارحمنا» . ويقرر الوالد عندئذ الزام البنت باعطاء تفسيراتها للواقع . وبمجرد نطقها بأقوالها الأولى ، يتريث ويتوقف ويفهم الأب من نظرة فتاته الحازمة التزامها بالنشاط الوطني . وتقدم الخوف الجديد الطازج المنتعش لكنس ذلك العار القديم .. فالخوف الآن هو خوف الموت في الكفاح أو خوف عذابها كفتاة . فالأسرة كلها بطبيعة الحال من وراء البنت والأب الجزائري الذي ينظم كل شيء

والمرأة أمام التعذيب ، والمرأة أمام الموت ، وفي المحاكم . وكل ما نذكره من اشارات سوف تكشف مع شيء من التنقيب عددا لا حصر له من الوقائع الهامة في طريق الصراع الوطني .

والمؤسس لكل قيمة ، يمضون جميعا في أثر البنت ويتسللون ليلتزموا بالصراع من أجل الجزائر الجديدة .

وكان رفع الحجاب ثم وضعه من جديد أداتي بحث وإذا به يتحول إلى تقنية خاصة بالايهام العسكري كوسيلة للصراع ، ويختفي ذلك الطابع شبه التحريمي الذي أخذه الحجاب أثناء عهد الاستعمار اختفاء تاما تقريبا خلال صراع التحرير .

وحتى الجزائريات غير المشتركات اشتراكا فعليا في الحرب تسربت اليهن عادة السفور. وحقيقي ان ظروفا دفعت الى ظهور الحجاب من جديد في 1957 ، ذلك أن بعض المهام قد تعذرت في الواقع ، لأن العدو يعرف الآن خاصة وان بعض المناضلات قد أبحن بالسر أثناء التعذيب وهن في الغالب من النساء المشتبهات بالأوروبيات من حيث المظهر ويلعبن دورا أساسيا في المعركة بل قد وقع القبض على بعض الأوروبيات في الجزائر . ويعود العدو وهو يلمح أوجه دفاعه تنهار فيقع في الاضطراب الكامل . وبعد اكتشاف السلطات الفرنسية لاشتراك الأوروبيين أنفسهم في صراع التحرير ، تاريخا من تواريخ الثورة الجزائرية البارزة . فابتداء من ذلك التاريخ صارت

الدوريات الفرنسية تستجوب أي شخص وصار الأروبيون كالجزائريين موضع شك وارتياب وتهدمت الحواجز التاريخية واختفت وأصبح كل من يمسك حزمة ملفوفة معرضا لدعوته إلى فكها والكشف عما فيها . وكل إنسان يملك الحق في أن يسأل أي إنسان آخر حسابا عن طبيعة الطرود المرسلة إلى إلى الجزائر العاصمة أو فليبفيل (سكيكدة) أو باتنة . وفي هذه الأحوال يصبح من الضروري فك الحزمة على مرأى من الغازي المحتل وأن يعود من جديد إلى وضع الحجاب الـواقي .

وهنا أيضا ينبغي تعلم تقنيات جديدة مرة أخرى ، ويقول المسؤول أن حمل جسم ثقيل تحت الحجاب وهو خطير التداول واللمس مع اعطاء الانطباع بأن الأيدي فارغة وانه لا يوجد شيء تحت الحجاب اللهم الا أنها امرأة مسكينة أو شابة لا أهمية لها .. فهذا يعني أن الأمر لا يتعلق فقط بالحجاب ولا بد من الظهور كاحدى «الفاطمات» حتى يطمئن الجندي الى أن هذه لا يمكن أن تكون قادرة على اتيان أي شيء .

هذا أمر صعب ، ورجال الشرطة عندما يستوقفون امرأة محجبة على بعد ثلاثة أمتار منك ليستجوبوها ، لا يظهر فيها ما يدعو للشك على الخصوص . أما فيما

يتعلق بالقنبلة فقد ظن المسؤول أن الأمر متعلق كما يبدو من مظهره الانفعالي ، أما بهذا أو بحقيقة للقنابل وهي مربوطة في الجسم بواسطة مجموعة من الأربطة والخيوط . ذلك أن الأيدي يجب أن تبقى حرة عارية متعرية حاضرة لتقوم بحركة مسرحية تنم عن الخنوع والبلاهة الى العسكريين حتى لا يتقدموا الى أكثر من ذلك .

واظهار اليدين فارغتين وساكنتين وحرتين شكلا هو بمثابة العلامة التي تجعل الجندي عدوا أعزل .

والآن يعود جسد المرأة الجزائرية الذي بقي تحت رحمة التفتيش أول الأمر فينتفخ وفي المراحل الأولى كان ينبغي تحريك البدن برشاقة وتنظيمه أما في اتجاه المهابة أو الاغراء . أما هنا فلا بد من الغاء البدن الغاء واحالته بلا شكل بل والذهاب الى أبعد من ذلك في جعله لا شيء بالمرة . ورأينا أن هذه هي مرحلة القذائف والقنابل والمدافع الرشاشة . .

بيد أن العدو قد أحيط بالأمر ، وفي الشوارع أصبح المشهد التقليدي للنساء الجزائريات المسندات الى الحائط ويمرر بأبدانهن دائما أبدا تلك الجساسات المغناطيسية المشهورة ، وهي أشبه شيء بـ«أواني القلي» وصارت كل

امرأة محجبة بل كل جزائرية مشكوكا في أمرها ... لا تمييز ... تلك فترة يتعرض فيها الرجال والنساء والأولاد وكل الشعب الجزائري لتجربة جديدة في آن واحد وهي تجربة وحدته وايمانه القوي بالانصهار الجديد للمجتمع الجزائري .

ويبدأ الاستعمار الفرنسي متجاهلا أو مظهرا جهله بألوان السلوك المتجدد فيعيد القيام بحملته التقليدية بمناسبة 13 مايو من أجل سفور المرأة الجزائرية واخضاعها لحضارة الغرب . ويبدأ التهديد بطرد العاملات والخادمات كما بدأ طرد النساء المسكينات من بيوتهن ومطاردة الغانيات ويؤتى بهن جميعا الى الساحة العمومية ويعرين من حجابهن «رمزيا» وهن يصرخن : «تحيا الجزائر الفرنسية!» وأمام هذا الاعتداء الجديد تظهر ردود الفعل القديمة ، وتلقائيا وبدون أمر عام ، تعود المرأة الجزائرية السافرة منذ وقت طويل فتضع الحجاب من جديد مؤكدة بذلك أن تحرر المرأة غير صحيح اذا كان باملاء فرنسا والجنرال ديجول .

وينبغي النظر من وراء هذه الأفعال المنعكسة النفسية أو ردود الأفعال الممثلة في هذه الاستجابة المباشرة بلا أدنى خلاف تقريبا الى ذلك الاتجاه الشامل لرفض القيم

التي يفرضها الجندي الاستعماري حتى ولو كانت هذه القيم موضع اختيار فعلي . ولعدم ادراك هذه الحقيقة الذهنية وهذا الاستعداد في الطباع (وهي الحساسية المعروفة عند الخاضعين للاستعمار) يظل الاستعماريون غضبى دائما لظنهم بأنهم «يقدمون لهم الخدمات على الرغم منهم» وهم يرفضونها . فالاستعمار يود لو أتى كل شيء من جانبه ، بيد أن الحالة النفسية المسيطرة للخاضع للاستعمار هي عادة أن ينطوي على نفسه أمام أية اشارة من الغازي المحتل . وبهذا يعد تنظيم الاستعمار للموكب المشهور في 13 مايو خطوة نحو الزام المجتمع الجزائري باستعادة مناهج قديمة فات أوانها في الصراع .

فبمعنى من المعاني تثير الاحتفالات المختلفة الرغبة في العودة الى الخلف أي التراجع والنكوص .

ويصبح على الاستعمار ان يتقبل أشياء تجري بدون رقابته أو ارادته . ونحن نذكر العبارة التي نطق بها أحد الرجال السياسيين الافريقيين في الجمعية الدولية اذ يجيب هذا الأخير على الاعتذار التقليدي بعدم نضج الشعوب المستعمرة وبعدم قدرتها على إدارة أمورها كما ينبغي ، بقوله ان الشعوب النامية تحتفظ لنفسها بالحق في المطالبة

«بحق أن تحكم نفسها حكما سيئا» . ولا ينتج عن كل التأهبات المذهبية للاستعمار في محاولته تبرير احتفاظه بسيطرته في معظم الأحوال أن المواطن الخاضع للاستعمار يجد نفسه واقعا في نطاق من المعارضات القاطعة الصلبة الجامدة .

وعاد الحجاب عقب 13 مايو ولكن بعد أن أفرغ نهائيا من بعده التقليدي الوحيد . فثمة جانب ديناميكي تاريخي للحجاب تسهل ملاحظته عينيا من خلال سيرة الاستعمار في الجزائر .في البداية الحجاب آلية من آليات المقاومة وتبقى قيمته بالنسبة للمجموع الاجتماعي كبيرة جدا . فالحجاب إما تقليد وإما تمييز صارم للجنسين أو هو كذلك معارضة للمحتل الاستعماري عندما «يريد سفور الجزائر» . وفي المرحلة الثانية يتدخل التغيير بمناسبة الثورة وفي ظروف معينة بالذات . ويترك الحجاب جانبا أثناء العمل الثوري .

فما كان حرصا من جانب المحتل المستعمر على اسقاط كل الاعتداءات النفسية أو السياسية ، تحول الى أداة ووسيلة ، فالحجاب يعين الجزائرية على الاستجابة للمسائل الجديدة التي فرضها الصراع .

وانتقلت مبادرة ردود الفعل الخاصة بالمواطن المستعمر، من أيدي الاستعماريين وتلك مستلزمات الكفاح التي تثير في المجتمع الجزائري أوضاعا جديدة أو اتجاهات جديدة في الظهور. وألوانا مستحدثة من السلوك.

الفصل الثاني

هنا صوت الجزائر ! ..

لعلنا ندرس في هذا الفصل الأوضاع المستحدثة التي تبناها الشعب الجزائري أثناء صراع التحرير أزاء الأدوات التقنية المحددة ، وأعني بها : جهاز الراديو . وسنرى من ثم أن الموقف الاستعماري في مجموعه قد صار موضوع التساؤل من وراء هذه الأنواع الجديدة من السلوك . وسوف نجد الفرصة خلال هذا الكتاب بطوله لاظهار أن المعارضة من حيث المبدأ للسيطرة الأجنبية تؤدي في حدّ ذاتها إلى تغيرات جوهرية وتحولات جديدة في وعي المواطن الخاضع للاستعمار كما تؤدي الى نفس الشئ في ادراكه الخاص للمستعمر الأجني في وضعه كرجل في هذا العالم .

وراديو الجزائر العاصمة عبارة عن محطة ارسال فرنسية موجودة في العاصمة منذ عشرات السنين ليكون صدى لمحطات الاذاعة الفرنسية المؤسسة في باريس ، وليعبر قبل

كل شيء عن المجتمع الاستعماري وقيمه . ويملك معظم الأروبيين في الجزائر في مجموعهم جهازا للراديو وأعتدنا أن نرى قبل سنة 1945 أجهزة الراديو بنسبة تعادل 95 ٪ ويعد من يملك مثل هذه الأجهزة من بين الجزائريين على وجه الخصوص كأحد المنتمين الى «البورجوازية المتطورة» كما قد يكونون من بين «القبائل» الذين هاجروا منذ زمن بعيد وعادوا إلى القرية بعد ذلك . وتفسر لنا التنظيمات الطبقية الاقتصادية بين المجتمعات المسيطرة والخاضعة للسيطرة الى حد كبير هذا الوضع الخاص بالاشياء .....ولكن بطبيعة الحال تتلون هذه القائمة من الوقائع بطريقة خاصة كما هو الأمر في كل موقف استعماري وعلى النحو كانت مئات الأسر الجزائرية التي يسمح مستوى حياتها بحيازة جهاز للراديو تحرّم نفسها من اقتنائه . وبالرّغم من ذلك لم يكن ثمة أي قرار عقلاني أو نابع من الظروف نفسها برفض هذا الجهاز..

لا توجد أية مقاومة منظمة ضد هذه الاداة التقنية ولا يوجد دليل واحد حتى بعد البحث والفحص على أية خطوط حقيقية للوقوف المعادي للتثقيف كما يأتي غالبا في الوصف المدرج ضمن بعض الدراسات الخاصة المقصورة على المناطق المتخلفة . ويمكننا أن نلاحظ على أي حال

وهذه حجة تؤكد نتائج علماء الاجتماع أن الجزائريين وقد خضعوا لالحاح هذه المسائل المتعلقة بأسباب الكتمان، يردون ردا مؤداه في الغالب كالآتي : «تتخذ تقاليد التوقير والاحترام عندنا أهمية وتدرجا بحيث يصبح مستحيلا عمليا الاصغاء في جلسة عائلية الى البرامج الاذاعية وذلك لأن الاشارات الى موضوعات العشق والغرام أو حتى مواقف الهزء التي يراد بها الاضحاك في برامج الاذاعة تثير في أعقابها وسط الأسرة عددا من التوترات غير المحتملة .»

ويكفي أن يكون هناك احتمال الضحك وهو احتمال قائم أمام رئيس الأسرة أو الأخ الأكبر والاستماع المشترك الى أقوال العشق أو عبارات التزق حتى يحدث ابطاء بكل وضوح للتوسع في انتشار أجهزة الراديو في المجتمع الأصلي الجزائري . وينبغي فهم العادة المتبعة لدى الرسميين في الاذاعة الجزائرية عند اعلانهم للبرامج التي تتوخى السماع المشترك والبرامج الخاصة التي تتعرض خلالها الأشكال الاجتماعية التقليدية لكثير من الحرج .

وهاك اذن حالة معينة في مقام التوضيح ، وهي أن أجهزة الاستقبال تفرض نفسها بصعوبة على المجتمع الجزائري . فهذا المجتمع الجزائري يرفض هذه التقنيات

في مجموعها لأنها تعرّض بكيانه وبأنماط الحياة المعيشية التقليدية . وفضلا عن ذلك فالسبب المزعوم وهو أن برامج الجزائر التي لا تخضع للتنويع لصبها في قوالب غربية لا تتكيف مع التدريج الوراثي للسلطة الأبوية بصورتها الصارمة بل والاقطاعية وذات الموانع والمحرمات الأخلاقية المتعددة والمتفشية في الأسرة الجزائرية .

وأمكن اقتراح تقنيات اعلامية للتخاطب ابتداء من هذا التحليل لخدمة الأسرة ككل شامل مع التصويب نحو مجموعات الذكور ومجموعات الاناث وما الى ذلك ...

وسنرى عندما نصف التقلبات التي طرأت على هذا المجال بمناسبة الحرب القومية ما ينطوي عليه مثل هذا التفسير الاجتماعي من تصنع زائف وما يحتوي عليه من الأخطاء الكبيرة .

وكنا قد أشرفنا سلفا الى السرعة المتزايدة التي تم بها اقتناء جهاز الراديو في المجتمعات الأروبية ويجري دخول الراديو الى المجتمع الخاضع للاستعمار بايقاع يذكرنا بالسرعة التي نفذ بها الى المناطق الغربية المتطورة . وينبغي أن نتذكر أنه يوجد في الموقف الاستعماري حيث يبلغ

الانقسام الاجتماعي كما شهدناه من قبل حدّة لا مثيل لها .. يوجد في هذا الموقف الاجتماعي اندفاع نحو الوضع البورجوازي بلا توقف وبالطريقة الهزلية المألوفة دائما عند أبناء الوطن المستعمر ويعد امتلاك جهاز الراديو بالنسبة للاروي بالتأكيد بمثابة افتتاح دائرة حاضرة على الدوام في متناول البرجوازية الصغيرة الغربية التي تشتري «الفيلا» عقب الراديو مارة فيما بينهما بالسيارة والثلاجة . وامتلاك جهاز الراديو والشعور أيضا بالحياة وبدبيبها في في المجتمع الاستعماري بكل ما في هذه الحياة من احتفالات وتقاليد لا تلبث أن تتأسس ، وبأشكال من التقدم ، أي فكل ما يهمها من عوامل مدّ جذورها في الأرض وثباتها فيها غير أن هذا على الخصوص لا يتحقق الا وسط البلد كموقع تجمع سكاني فقير وفي المراكز الخاصة بالاستعماريين حيث يكون الراديو الوسيلة الوحيدة للارتباط بالمدن وبالجزائر العاصمة وبأرض الوطن الأصلي وبعالم المتمدنين . فكأن الراديو إحدى الوسائل التي يهرب الإنسان بفضلها من الضغط في حالات القصور والسلبية الذي يتميز به المواطن الأصلي ووسطه المحيط به وكأن الراديو حسب التعبير التقليدي لمصاصي المنافع من المستعمرين

هو « الطريقة الوحيدة التي يستشعر بها الانسان أنه ما يزال إنسانا متمدنا . »

ويقوم الراديو في المزارع والحقول بتذكير مصّاصي المنافع المستعمرين حقيقة السلطة والامان والاطمئنان التي يوفرها هذا الجهاز بمجرد وجوده ويؤسس راديو الجزائر العاصمة كل حقوق مصاصي المنافع الاستعماريين ويقوي يقينهم في الاستمرار التاريخي للغزو أي في استغلالهم الزراعي . وتؤلف موسيقى باريس ومقتطفات صحافة الوطن الأم والأزمات الوزارية الفرنسية قاعا أرضيا متناسقا تستمد منه المجتمعات الاستعمارية كل كثافتها وتبريرها ويأخذ راديو الجزائر العاصمة على عاتقه مهمة تأسيس ثقافة المستعمر الغازي والقضاء على الجهل وعلى طبيعة المواطن الأصلي . ويقيم راديو الجزائر العاصمة وهو صوت فرنسا في الجزائر المركز الوحيد كمرجع في المستوى الإعلامي . وراديو الجزائر العاصمة هو دعوة يومية بالنسبة الى مصّاص المنافع حتى لا ينضم الى قضية البلاد الاصلية وحتى لا ينسى حقه المشروع في الثقافة . ويعرف أبناء المواقع الاسكانية الفقيرة من رجال الاستعمار وهم المغامرون المهتمون باصلاح الأرض . يعرفون هذه الحقيقة جيدا

ولا يكفون عن تكرار قولهم أنه لولا النبيذ والاذاعة لأصبحوا عربا منذ وقت طويل[1].

وكان الراديو في الجزائر قبل سنة 1945 قد تضاعف من حيث هو أداة للاعلام داخل المجتمع المسيطر. وبالتالي فقا رأينا هذا الراديو وقد تحول الى أداة مقاومة عند الأروبيين المعزولين وأداة ضغط عند الأروبيين في مجموع أيامهم المعيشية بمثابة رباط يربطهم بالعالم المتمدن وبمثابة وسيلة فعالة لمقاومة التأثير الفتاك من جانب المجتمع الأصلي الجامد القائم بلا منظور وبلا قيمة وفي تخلف مستمر.

أما بالنسبة للجزائر فعلى العكس من ذلك يكاد يكون الموقف متغيرا تغيرا شاملا وقد شهدنا من قبل كيف كانت الأسرة ميسورة الحال تتردد في اقتناء الراديو. وعلى أي حال فلم يؤثر عنها أي تعبير واضح ينم عن المقاومة بصفة منتظمة ومنطقية وانما يدفع الأسرة الجزائرية الى ذلك في الغالب عدم اهتمام حزين لهذا الجانب من الوجود الفرنسي. والموقف أكثر وضوحا في الأوساط الريفية والمناطق البعيدة عن مراكز الاستعمار. وهناك جهل بالمشكلة

---

(1) وراديو الجزائر العاصمة فضلا عن ذلك، واحد من الأربطة العديدة التي يتعامل بها المجتمع المسيطر الحاكم. وبالمثل تلعب الاذاعات الأخرى في «مونت كارلو» و «باريس» و «آندورة» دورا وقائيا ضد التعريب.

أو على وجه التحديد المشكلة عند هذا الحد أبعد ما تكون عن المشاغل اليومية للمواطن الأصلي ، بما لا يسمح بطريقة واضحة بوقوع الفضيحة التي تدعو الجزائري الى البوح بالسبب الذي يدفعه الى عدم امتلاك جهاز الراديو.

ولا يبلغ الباحث المحقق الذي يفرض ويطالب باجابات مرضية درجة قشع الغيوم فيما يتعلق بجهله بالمشكلة ، والواقع أنه ينبغي تلقي كل التبريرات المقترحة بأقصى ما يمكن من الحذر ولا ينبغي في مستوى التجربة المعاشة توقع الحصول على نوع من تعقيل الأوضاع والأذواق والمشارب .

ويمكن تناول تفسيرين بالتحليل هنا فجهاز الراديو كأداة تقنية بالمعنى الحرفي ينمي القدرات الحسية والذهنية، والعضلية للناس في مجتمع معين ، في حين أن « جهاز الراديو في الجزائر المحتلة هو التقنية التي يملكها الاستعمار في اطار السيطرة الاستعمارية بدون أن يستجيب لأية حاجة لدى المواطن الأصلي ». وقد أصاب جهاز الراديو كرمز للوجود الفرنسي وكنسق مادي داخل الهيئة الاستعمارية ، قدرا معادلا من السلبية المهمة إلى أقصى درجة . ولا يلبث المواطن الأصلي أن يرفض أو ينكر ضمنيا احتمال المضاعفة

وامكانية التوسع في القدرات الحسية أو الذهنية عن طريق الراديو الفرنسي . ولا يمكن اطلاقا ادراك الأداة التقنية والحصيلة العلمية الجديدة في حد ذاتها وفي حياد تام عندما تنطوي على شحنة كافية من أجل زعزعة مثل هذا الاستعداد المحكم لدى المجتمع الأصلي . وتصبح الادارة التقنية ، موجودة ضمنيا في الموقف الاستعماري حيث توجد المعدلات السلبية أو الايجابية كما نعرف دائما بطريقة قوية الدعائم .

ويمكن النظر الى جهاز الراديو وسط الموقف الاستعماري بطريقة خاصة وعلى مستوى آخر كنسق للاعلام وكمعبر عن لغة وبالتالي عن رسالة . وتوجد تقنيات الراديو والصحافة والأنساق الرمزية بكل رسالاتها ووسائل نقلها بطريقة عامة في المجتمع الاستعماري وفقا لكيان مميز تماما . ولا يشارك المجتمع الجزائري أي المجتمع المغلوب على أمره اطلاقا في هذا العالم الخاص بالرموز. ولا يتلقى الرسائل المرسلة عن طريق راديو الجزائر الا بواسطة أولئك المنتمين الى القوة الغالبة ممن يتحاشون في طريقة تشبه السحر ، أعضاء المجتمع «الأصلي» . ويقوي عدم امتلاك الراديو عند هذا المجتمع الأصلي على وجه التحديد ذلك الانطباع بالعالم المقفل الذي يؤثره الاستعمار باعلامه الاستعماري . ومن الواضح على المستوى الخاص بالبرامج اليومية قبل سنة

1954 أن الثناء الذي كان يوجه الى قوات الاحتلال لم يكن موجودا بصفة عملية وكان يكتفى هنا وهناك بالتأكيد بما يشير اليه الراديو من التواريخ المجيدة لاحتلال الجزائر مع ذكر بعض مشاهد الفحش والخزي خلالهما بما يلامس اللاشعور حتى تتهيأ للعدو والمحتل فرصة تحقير واذلال المقاوم الجزائري سنة 1830 ، وكانت توجد تلك المواكب التذكارية حيث يدعى المحاربون القدماء « المسلمون » لوضع باقة من الزهور عند قاعدة تمثال الجنرال « بيجو » أو الرقيب « بلاندان » بحكم كونهما بطلين من أبطال الغزو ومن أبطال القضاء على الآف الوطنيين الجزائريين ، ولكن في المجموع لا يمكن التأكيد أن المضمون العنصري الواضح أو المضمون المعادي للجزائر يحسب حساب تلك اللامبالاة وتلك المقاومة عند المواطن الأصلي ، ويوجد تفسير ذلك أكثر في حقيقة أن الجزائري كان يرى راديو الجزائر بنفس الطريقة التي يرى بها عالم الاستعمار وهو يفصح عن نفسه ، واعتاد الجزائري قبل الحرب أن يلمس روح السخرية التي دفعته إلى تعريف راديو والجزائر العاصمة بوصفه ، «مجموعة من الفرنسيين تخاطب الفرنسيين» .

ولا تلبث الجزائر ابتداء من سنة 1945 أن تقفز بعنف

صارخ على المسرح الدولي ... واذا بنا نفاجأ أثناء بضعة أسابيع بعدد 45000 ألفا من القتلى في كل من سطيف وقالمة مما يملأ صفحات الجرائد والنشرات الاعلامية عن مناطق كانت حتى ذلك الوقت مجهولة . ويصور الجزائريون أنفسهم تصويرا مبدئيا قبل أن تكون ثمة أية علامة تنبىء بالانقلابات الهامة وهم بصدد التغير ابتداء من الاخوة الذين استشهدوا أو أصابهم تشوية الحرب أو من خلال التعاطف الزائد من قبل الرّجال والنساء في كل من أمريكا وأوروبا وافريقيا . وتضع يقظة العالم الخاضع للاستعمار وكذا التحرر التدريجي للشعوب المستعبدة منذ زمن طويل الجزائر في اطار عملية تتجاوزها وهي تؤسسها ، ويأخذ ظهور البلاد العربية المتحررة أهمية فريدة من نوعها واذا بدخول أجهزة الراديو الى الجزائر لأول مرّة على نحو ضخم يقترن بايجاد محطات الارسال القومية في سوريا ولبنان ومصر. وتزايدت أجهزة الراديو ابتداء من سنة 1947 ـ 1948 زيادة معتدلة ولكن حتى في ذلك الوقت لم يكن الجزائري يهتم بالاستماع لاجهزة الراديو الأجنبية والعربية ، ولا يستقبل راديو محطة الجزائر العاصمة الا عندما تذيع الموسيقي ذات الطابع الجزائري أي الموسيقي القومية . ولم يلبث أصحاب المشروعات

التجارية الأروبية أمام هذا التوسع في السوق الجزائرية أن يختاروا وكلاء مندوبياتهم من ممثلي العناصر القومية للسكان الأصليين . واقتنعت الدور التجارية الأروبية عندئذ بأن بيع أجهزة الراديو يتوقف على جنسية التاجر .

ولكن بمناسبة ظهور بوادر المناوشات الحربية في تونس سنة 1951 ـ 1952 ، بدأ الشعب الجزائري يستشعر بالحاجة الى زيادة شبكاته الاعلامية وبدأ المغرب سنة 1952 ـ 1953 يأخذ على عاتقه مهمة القائم بحرب التحرير ضد المستعمر ، ولا تلبث الجزائر في أول نوفمبر سنة 1954 أن تلحق بالجبهة المغربية المعادية للاستعمار . وفي تلك اللحظة تقع تغيرات جوهرية جدا في اطار محدد هو مسألة الحصول على أجهزة الراديو كأسلوب في اتخاذ أوضاع جديدة وجها لوجه أمام هذه التقنية الاعلامية بالذات .

فالواقع أن ردود فعل العدو المحتل هي التي تحيط الجزائري علما بأن شيئا خطيرا وهاما يجري داخل البلاد ويحصل الرجل الأروبي عن طريق شبكة من الصحافة والاذاعة والانتقالات على فكرة واضحة الى حد ما عن الأخطار التي تهدد المجتمع الاستعماري ويرى الرجل الجزائري وجه المستعمرين الغزاة فيلتقط منها دلالات معينة بمدى

التزايد في اضطراب الاستعمار ويستشعر الحاجة الملحة والحيوية الى أن يكون على المام بما يدور حوله ويقوى عنده الانطباع الغامض بأن أشياء هامة جوهرية تجري بحكم ذلك القرار الصامت لدى المواطنين مما يعبر عن الرغبة المكنونة لدى الشعب ويجسم الإرادة في الوجود كدولة وهو ما لم يعرف من قبل ، وكذلك بحكم ما يراه على الخصوص من تلاشي حاله الطمأنينة لدى المصاص المستغل الأجنبي تلاشيا موضوعيا يصادف هوى ورضا في عينيه.

ويفرض صراع التحرير الذي بدأ يتكشف في مظهر الطبيعة المفاجئة لدى المصاص المستغل الأجنبي أو في ملامح الغضب غير المتوقع ولغير سبب ،على الجزائري ضرورة متابعة تطور الأحداث نحو المواجهة خطوة بخطوة ، ويبالغ الأروبيون في زيادة أخطائهم في هذه الفترة التي بدأ فيها التلامس بين حواف الصراع . وعلى هذا النحو يبدأ المنتفعون الأجانب في مزارعهم بتجميع العمال الزراعيين لكي يسوقوا اليهم أنباء تلك العصابة من الثوار غير المعروفة بالمنطقة وقد فقدت عشرات من رجالها بين منطقتي الأوراس والقبائل . وفي بعض الأحيان كانت توزع على العاملين والخدم زجاجات «الليموناد» أو قطع

«الجاتوه» بمناسبة تنفيذ الاعدام في ثلاثة أو أربعة من المشكوك فيهم على بعد عدة كيلومترات من الاقطاعية .

ويجد الجزائري نفسه على هذا النحو منذ بداية الشهر الأول للثورة مسوقا لامتلاك وسائله الاعلامية الخاصة حتى يحمي نفسه وحتى يتقي ما يعتبره مناورات دعائية كاذبة من جانب الغازي المحتل وتصبح معرفة ما يدور ويجري ومعرفة الخسائر الحقيقية للعدو وبين رجال وطنه أساسية للغاية . ويشعر الجزائري في تلك الفترة بأنه محتاج الى رفع حياته الى مستوى الثورة وهو بحاجة الى الدخول في شبكة واسعة للاعلام ، وبحاجة الى الاندماج في العالم الذي تجري فيه الأشياء والذي توجد فيه الأحداث وتتفاعل فيه القوى . فبفضل الحرب التي أثارها دوره يتفتح الجزائري على عالم طائفي في صراع وعلى مجتمع عامل . وعلى الجزائري أن يواجه اعلام العدو باعلامه الخاص ويواجه الجزائري الحقيقة التي يعلنها الاستعماري الارهابي والتي كان يرفضها من قبل كأكذوبة ، بحقيقة أخرى ، ومن شأن أكذوبة الاستعماري أن تأخذ صورة الحقيقة لأنه هو نفسه قد صار اليوم أكذوبة في خطر وفي مأزق الدفاع وكل هذه الأساليب الدفاعية لدى الاستعماري وكل ردود أفعاله واجراءاته في المقاومة تؤدي إلى إبراز فاعلية العمل القومي وتدفعه دفعا إلى المشاركة في عالم الصدق

والحقيقة ، ولم يعد رد فعل الجزائري مجرد رفض منقبض يائس فلانه يعترف بوجوده في قلق تصبح أكذوبة العدو بالنسبة اليه جانبا إيجابيا من الحقيقة الجديدة الخاصة بأمته .

وتشرع الجزائر في محاولتها لتنظيم جهازها الاعلامي أثناء الشهور الأولى من الحرب جنبا إلى جنب مع صحافة الكلمة المكتوبة . وكانت الصحافة الديمقراطية لا تزال قائمة في الجزائر فضلا عن الصحف ذات التقاليد العدائية للاستعمار أو ذات الادارة الموضوعية مما اعتاد المواطن الجزائري قراءته بلهفة . واعتاد الجزائري أن يحصل على عناصر لاعادة التوازن في هذا القطاع من الاعلام . وتتبدى قوة رسالة الاستعمار والانساق العاملة من أجل فرض هذه الرّسالة واختلاق «الصدق حول هذه الرسالة» حتى لا يبقى للجزائري الخاضع للاستعمار في معظم الوقت سوى ايمانه الذاتي المتزايد شيئا فشيئا في معارضته للاعتداءات الغاشمة التي توجهها الصحافة الفرنسية من أجل بث عوامل البتر والانفصال الباطنة وفي التظاهرات الاستعراضية للقوى العسكرية والبوليسية . ولا يلجأ المواطن المدني الذي يواجه كل يوم «بالقضاء على آخر فلول العصابات» الى اليأس بفضل ايمانه الرّاسخ وعقيدته الثابتة التي لا تمس .

وتتوقف شيئا فشيئا المعونة الاخلاقية بحكم كونها موضوعية وبحكم صدورها عن الصحافة الديموقراطية وتعمل الرقابة الذاتية للصحف المحلية المعروفة بشرفها التقليدي على تقوية هذا الانطباع بعدم التمام وبعدم الاكتمال أعني الانطباع بالخيانة على مستوى الاعلام . ويبدو في نظر الجزائري أن جوانب كاملة من الحقيقة تخفى عنه اخفاء ، ولديه ما يشبه اليقين بان القوة الاستعمارية في طريقها الى الانهيار على مسمع ومرأى منه وبأنه لا يتابع عن كثب كل ما يقع بالفعل من مظاهر الاحتضار . وفجأة يشعر بالخوف من أن هذا الشيء الذي طالما شعر بالكراهية نحوه وأنزل به الاصابة القاضية في الجبل والذي صار من المحتمل أن تكون أيامه الباقية معدودة .... فجأة يشعر الجزائري بأنه قد لا يختفي بدون أن يسمح له برؤية كيفية تحلل هذه القوة وذلك الشبح الكئيب . ويستشعر الجزائري أثناء هذه الفترة بانطباع الاحباط النفسي وتتوقف عدائيته لأنه لا يحصي النقاط ولأنه لا يسجل ساعة بساعة هزائم العدوّ ولأنه لا يقيس في النهاية شبرا بشبر عملية التقلص التدريجي للقوة الغازية المعـادية .

وقد أحاط الأروبي إحاطة عامة وبصفة موضوعية

بأبعاد الثورة المناهضة ولا يظن حقيقة بأن الفرق الثورية سوف تحتل المدينة في صباح يوم مشرق . ويعرف الأروبي بنوع من الدقة غير التامة خطورة قوات الثورة ولا يكف عن الموازنة بينها وبين القوات الفرنسية . وكل طائرة تشق أجواء الفضاء وكل قطعة مصفحة تتقدم مع الصباح هي بمثابة لمحات من النور المشرق في عالم من القلق وعدم التحدد وهو العالم الذي يعيش فيه المنتفع المستغل الأجنبي ويحس الأروبي بالهزّة ولكن لا يلبث مع الشهور الأولى من سنة 1955 أن يعتقد بأن شيئا لم يضع وبأن الاستعمار له مستقبله في الجزائر . وتقوّي التصريحات الرسمية الاذاعية عزيمته من هذه الناحية . أما الجزائري وبخاصة ذلك الذي يعيش في المناطق الريفية فانه يشكل أوجه النقص في معلوماته بوسائل لا معقولة مطلقة من المزايدة والمضاربة ولهذا تطرأ ردود فعل مختلة النسق الى حد كبير مع الواقع الموضوعي حتى يكتسي في نظر المراقب بمشهد مرضي . ويحدث أن يشاع في قسنطينة في الأشهر الأولى من السنة 1955 خبر مؤداه مثلا أن الجزائر العاصمة قد وقعت في أيدي الوطنيين أو أنه يذاع في العاصمة أن الراية الجزائرية ترفرف فوق قسنطينة وفليبفيل (سكيكدة) وباتنة ...

ولا يدرك المصاصون المنتفعون الأجانب دائما في الأوساط الاستعمارية الصغيرة تلك التأكيدات العارمة العنيفة والمفاجئة التي يطلقها الفلاح ، وكثيرا ما يحدث أن يشاهد وهو يتصل اتصالا هاتفيا بالمدينة القريبة من داره حتى يتثبت من أن شيئا ذا أهمية لم يحدث في البلاد . ويستشعر الأروبي بأن الحياة التي شيدها فوق أنقاض الشعب المغلوب على أمره قد فقدت كل ضمانتها .

فقبل الثورة كانت ثمة حياة وحركة ووجود للمنتفع الأجنبي وفي مقابل ذلك كان هناك احتضار متصل للمواطن الخاضع للاستعمار . ويقرر الأروبي ابتداء من سنة 1954 أن حياة أخرى بدأت تلوح في الجو موازية لحياته وأن المجتمع الجزائري فيما يبدو لم تعد الأشياء تجري فيه وتتكرر كما كان الحال من قبل . وإذا بالأروبي بعد سنة 1954 يعرف أن شيئا ما محجوب عنه وتلك هي الفترة التي يكتسي فيها التعبير القديم عن «محادثة التلفون العربية» دلالة شبه علميـــة .

ويطلق الأروبيون في بلاد المغرب العربي ، عبارة « محادثة التلفون العربية » على السرعة النسبية المعتادة عندما تسري الهمسات الاخبارية وتنتشر بها في المجتمع الوطني الأصلي . ولم يكن في أية لحظة ما يدعو لتغطية

شيء آخر واخفائه تحت هذا التعبير أو تحت هذا المنطوق بيد أننا لا نلبث عام 1955 أن نسمع الأروبيين بل والجزائريين يشيرون بثقة وكما لو كانوا ينقلون اليك سرّا من أسرار الدولة ، الى تقنيات الارسال بعيد المدى الذي يذكر بشكل غامض بأنساق الاشارة ، ودق الطبول على ما هو الحال في بعض المناطق الافريقية ، ويعطي الجزائري بالتالي الى الأروبي المعزول الانطباع بأنه على اتصال مستمر بالقيادة العليا للثورة ، ويوجد لدى المواطن الأصلي نوع الاطمئنان المتزايد المتضخم الذي يثير على مستوى السلوك الفردي بعض المظاهر الخاصة .

وكنا نرى بعض الأفراد وهم في هبة من الغليان المضطرب ، وكأنهم قد أطيح بهم الى خارج أنفسهم . ويراهم الناس وهم يتقدمون في الشوارع أو في قلب الحقول المعزولة بلا سلاح أو هم يلوحون بسلاح أبيض ضئيل مدبب وهم يصيحون « تحيا الجزائر مستقلة » .... « إنا لمنتصرون ». وينتهي هذا السلوك العدائي ذو التعبير العنيف الصارخ في معظم الأحوال بسلسلة من طلقات المدافع الرشاشة التي تطلقها دورية عسكرية . وعندما يذهب الطبيب لمحادثة المصاب وهو يشرف على الموت تخرج من فمه عبارات تقليدية تقول : « لا تصدقهم ! نحن الأقوى وسياتي دورنا وأنا

مكلف بأن اخطرك بمجيئهم نحن الأقوياء وسوف نسحق العدو .»

ويحدث أن يكون بعض هؤلاء الملهمين ، مجرد جرحى فيوكل بهم الى هيئات الشرطة من أجل استجوابهم ولا تلاحظ الطبيعة المرضية للسلوك ويبقى المتهم أياما باكملها في التعذيب حتى تخطر الصحافة الجمهور بانه قد أطلق عليه النار وقتل عندما كان يحاول الفرار أثناء نقله من مكان لآخر أوأنه قضى نحبه ، على اثرمرض طاريء. وتطفر المجموعة الحاكمة بالمثل مظاهر الغليان العقلي فنشهد تفجر الخوف الجماعي كما نشهد لدى المستغل الاستعماري هروبا اجراميا متزايدا والفرق بين حالته وحالة المواطن الخاضع للاستعمار هو وجود اتجاه سريع نحو العمل الإجرامي لدى المستغل المستعمرفي صورة قتل وابادة حقيقية .

أما الجزائري فيجد نفسه مشغولا على المستوى الاعلامي بشبكة محددة تحديدا صارما من حيث المكان . ويوجد شبه اتفاق عام في القرية حول الأهمية العددية والمادية لجيش التحرير الوطني . ومن الميسور الحصول عند الطلب على بيانات حول قوة الأسلحة وبرنامج العمليات القادمة . ولا يستطيع أحد بطبيعة الحال ، ان يحدد مصدر هذه

المعلومات ... وإذا بالوصف المعطى حول هزيمة جيش من الجيوش القومية والاشاعة التي تذاع في الشعب حول الأخبار المنذرة بالكوارث تستخدم كمرجع من أجل تحديد أبعاد الظاهرة المقابلة . فقد كان من بين أجراء الطابور الخامس (الجواسيس) من أخذوا على عاتقهم سنة 1940 مهمة حقن الشعب الفرنسي بفيروسات الهزيمة . ولكن لا يمكن تجاهل حقيقة أن الأرض كانت ممهدة وأنه كان ثمة نوع من عدم التقيد الفكري وشيء من السماح العقلي تفسره كل تلك الهزائم المتوالية على أسبانيا والمانيا وبالذات على ميونيخ بفعل المعسكر الديمقراطي . وكأن الروح الانهزامية قد ولدتها سنة 1940 مباشرة الانهزامية التي تجلت في ميونيخ .

ولكن على العكس من ذلك في الجزائر ـ وهذا حقيقي في كل البلاد الخاضعة للاستعمار التي تشرع في الحرب التحريرية ـ فقد كان كل نبأ سارا ، كما كانت كل معلومة تبعث على الرضا ، واذا بالطابور الخامس(عملاء الاستعمار) يصبح مستحيلا بالجزائر واقرار هذه الواقعة الذي يدفع المتخصصين في علم الاجتماع الى الرجوع قليلا الى الوراء من أجل تفسير المواطن الأصلي كظاهرة لا تخضع لمقاييس الاستدلال أو التجربة . ويذهب

اخصائيو الحرب بتجربة أعمق الى حدّ الاشادة بأن هؤلاء الرّجال لهم عزيمة من حديد وأن تعصبهم لا يخضع للتفسير أو للفهم . وإذا نظرنا إلى المجتمع كمجموع في شمولية وجدناه يعطي أنطباعا باستيفاء معلوماته عن طريق اليقين المستمد شيئا فشيئا من الحقيقة . وتعبر هذه المظاهر والأوضاع الايمانية الشاملة وذلك الاعتقاد الجماعي عن ارادة مجموع الشعب في أن يكون أقرب ما يمكن من الثورة وأن يتعجل هذه الثورة إذا أمكن أو يسبقها أو بعبارة مختصرة في أن « يجد نفسه مشتركا في العملية » .

وظننا في ذلك الوقت ، وبخاصة في مراكز العمران ، بأن دروبا أشد تعقيدا من السلوك ستبزغ . وأحس الجزائريون بتعطشهم الى المعلومات الموضوعية فأقبلوا على شراء الصحف الديمقراطية التي تصل من فرنسا ، وصار المكسب المالي لهذه الصحف عظيما وتضاعف ، « الاكسبريس » « ولا فرانس أو بسيرفاتور» و « لوموند » نسبتها وتزيد هذه النسبة من واحد الى ثلاثة وتصل أحيانا الى خمسة في كل ما يصل من مطبوعاتها إلى الجزائر . وأعلن كل الأروبيين ، وبخاصة أولئك الذين يملكون أكشاك الصحف ، أن الخطر الاقتصادي ومن ورائه الخطر السياسي يتمثلان في هذه المطبوعات . وإذا قمنا بدراسة مشكلة

الصحافة المكتوبة في الجزائر فعلينا أن نذكر وجود خاصية معينة في نسق التوزيع وعلى هذا النحو يصبح البائعون العموميون وكلهم من صغار الجزائريين يبيعون الصحافة المحلية وحدها . ولم يكن يصل إلى المستهلك شيء من الصحف وكان على المشتري أن يطلب هذه الصحف في الأكشاك ويحس أصحاب الصحف المكتوبة في الجزائر مباشرة بالمنافسة من جانب الصحافة الوافدة من فرنسا فتبدأ حملات التشهير بالصحافة الموالية للعدو ، كما تبدأ عمليات المصادرة المتكررة لبعض هذه المطبوعات ... ويصبح لهذا كله طبعا دلالة خاصة وتصبح من عادة أصحاب الاكشاك هؤلاء شيئا فشيئا أن يجيبوا بروح عدائية أن « صحف الاوغاد لم تصل اليهم » .

ويكتشف الجزائريون في المراكز العمرانية وبالذات في أماكن التجمعات السكانية الريفية أنه يكفي الشعور بالقلق حول وصول أو عدم وصول تلك الصحافة من أجل اعطائها صبغة معينة . فصاحب اكشاك الصحف شأنه شأن الموظف الروتيني في الجزائر وفي فرنسا ، وهو بطبيعة الحال وبصفة قاطعة من المحاربين القدماء على وجه الخصوص ممن انخرطوا بقوة في اطارات التكوين الاستعماري المتطرف . ويكفي أن يطالب الجزائري بـ

«الاكسبرس» أو «لومانيتي» أو «لوموند» ليكون ذلك اعترافا علنيا وعلامة مؤشرة لرجال البوليس عن ولائه للثورة أو على الأقل أنه اشارة بارزة بأن الشخص يباعد بينه وبين المعلومات الرسمية أي « المعلومات الاستعمارية». وهو بهذا يبدي رغبة في الانفراد ، أما بالنسبة الى أصحاب الأكشاك فهو بمثابة تأكيد لا يحتمل الشك ولا يحوطه غموض فيما يتعلق بتضامن هذا الجزائري مع الثورة فشراء مثل هذه الصحف مدرج على هذا النحو بالنشاط القومي . واذن فهو فعل خطير.

ويرى صاحب الكشك في كل مرة يحضر فيها الجزائري لطلب واحدة من هذه الصحف تعبيرا عن وطنيته بما يعادل فعل الحرب نفسه وكأن صاحب الكشك هنا هو الممثل الخاص للمحتل الأجنبي . وبالتدريج يتمسك البالغون الجزائريون بعادة ارسال من ينوب عنهم من الأطفال الجزائريين لشراء الصحف لأنهم ملتزمون حقيقة الآن بالنشاط الحيوي للثورة أو بنوع من الحكمة والمعقولية ، اذا وضعنا في اعتبارنا ذلك الجو العدائي المسعور للاجانب الذي وضع أساسه المستعمرون المستغلون الفرنسيون سنة 1955 . وبعد أسابيع قليلة تذهب الحيلة الجديدة ادراج الرياح ، وابتداء من المرحلة الجديدة كذلك يرفض

أصحاب الاكشاك بيع «الايكسبريس» و «لومانيتي» و «ليبيراسيون» الى القاصرين ، وبالتالي يجد البالغون أنفسهم مضطرين الى رفع القناع عن شخصياتهم أو الى مجرد الاكتفاء بجريدة «أصداء الجزائر العاصمة» وفي هذه اللحظة بالذات تصدر الادارة السياسية للثورة أمرها بمقاطعة الصحافة الجزائرية المحلية .

ويستوفي هذا القرار غرضا مزدوجا فهو أولا رد فعل سريع لمعارضة اعتداء شركات الاحتكار الجزائرية باجراء ذي نتائج اقتصادية ، فالحركة الثورية تهز السوق عندما تحرم قراءة الصحف الجزائرية على جزء كبير من الزبائن الأصليين هزا عنيفا مؤثرا على الصحافة المحلية . ولكن الادارة السياسية على الخصوص كانت مقتنعة بأن الجزائريين اذا استسلموا للاعلام الاستعماري وحده فسينالهم بالتدريج ذلك الفعل الجماهيري الضار ، الناجم عن هذه الصحف الكاملة المليئة بالأرقام والصور المعروضة للتغرير بهم وحيث يمكن الاطلاع كل صباح بأي حال على عملية ازاحة الثورة بوضوح .

وبدت الضرورة واضحة جلية في مستوى الجماهير التي بقيت نسبيا بمعزل عن ذلك الصراع ، تدور حول الصحافة المكتوبة والحصول على أجهزة الاذاعة . ولا ينبغي

أن ننسى في الواقع أن الأمية العامة لدى الشعب قد جعلته لا يبالي كثيرا بالمواد المكتوبة . وكان معظم الجزائريين ، منذ الشهور الأولى للثورة يرون المادة المكتوبة باللغة الفرنسية فينظرون اليها بوصفها التعبير عن السلطة الغازية المحتلة . وكانت أوصاف الكتابة في « الاكسبريس » أو في « أصداء الجزائر العاصمة » علامة على الحضور الفرنسي .

ويمثل امتلاك جهاز الراديو في الجزائر سنة 1955 الوسيلة الوحيدة للحصول على أنباء الثورة من مصدر غير فرنسي . وتلبس هذه الضرورة طابعا الزاميا عندما يعرف الشعب كل يوم أن الجزائريين يصدرون من القاهرة بيانا بالصراع التحريري . وتتوافد على هذا النحو من القاهرة ومن سوريا ومن كل البلاد' العربية على وجه التقريب على الجزائر الصفحات الكبيرة المكتوبة وسط الجبال بعد أن حرّرها الأخوة والآباء والأصدقاء .

وبهذا ، وعلى الرغم من المعطيات المستحدثة يتم دخول أجهزة الراديو في البيوت والدواوير النائية بطريقة تدريجية . ولكن لا تحدث ما يشبه الهزة الحقيقية أو الفيض الزاخر من أجهزة الاستقبال .

ولا يحدث التغيير الحقيقيّ إلاَ في أواخر سنة 1956 .

فالواقع أن المنشورات بدأ توزيعها في هذه الفترة لتشير الى وجود صوت الجزائر الحرة . وتضمنت هذه المنشورات ساعات الاستماع وطول الموجات الخاصة بالارسال على وجه التحديد . وفجأة يحصل هذا الصوت الذي يتحدث من بطون الجبال دون أن يكون موجودا بها جغرافيا بالفعل، وإنما يحمل إلى الجزائر بأكملها رسالة أمجاد الثورة ، على قيمة جوهرية. وفي أقل من عشرين يوما نفذت كل مخزونات أجهزة الراديو . وبدأت تجارة أجهزة الراديو العادية تظهر في الأسواق ، ويشرع بعض الجزائريين من المدربين عند أصحاب حوانيت الراديو والكهرباء في أنشاء وافتتاح بعض المحارف الصغيرة وأكثر من هذا كان على التاجر أن يستجيب لحاجات معينة ذات طابع أصيل . فقد كانت الكهرباء غير موجودة في مناطق فسيحة في الجزائر. وكان هذا يفرض في الواقع على المستهلك بعض المشاكل المحددة . ومن هنا ابتداء من سنة 1956 كانت أجهزة الراديو التي تدار بأحجار البطارية هي المطلوبة بالحاح فوق التراب الجزائري ، وبيعت بضعة الآف من أجهزة الراديو الى الجزائريين خلال عدد من الأسابيع فكان ثمة أجهزة راديو يحملها الأفراد وأجهزة أخرى تحصل عليها الأسر أو بعض المجموعات من المنازل والدوارات والمشاتي

ولم يعد شراء جهاز للراديو ابتداء من سنة 1956 في الجزائر مجرد ارتباط بتقنية حديثة في الاعلام ولكن بوصفه الوسيلة الوحيدة للبقاء على اتصال بالثورة وللحياة معها . ويمكن لإخضاع التغيرات التقنية في البلاد النامية ، أن يلتمس في الحالة الخاصة بوجود جهاز راديو متحرك يدار بأحجار البطارية كصورة مميزة طليعية بالنسبة لجهاز الراديو الثابت ، الذي يدار بالكهرباء ... يمكنه أن يلمس في هذا علامة على التغير الجذري . فالواقع أن الجزائري بهذا التصرف يعطي انطباعا بعبور مرحلة والوصول دفعة واحدة الى أشد صور الاعلام مدنية .[1]

والواقع كما رأينا، كان هذا التقدم يرجع الى غياب الكهرباء في الدواوير الجزائرية . ولم تدرك السلطات الفرنسية في التو ، الأهمية الفريدة في هذا التعديل الذي طرأ على شعب الجزائر فيما يتعلق بجهاز الراديو ويحدث انفجار لدى الأسر القديمة المتداخلة المعارضة واذا بنا نشهد مجموعة من الأسر بالدوار حيث يدير الآباء والأمهات والبنات صفوفا لوحة جهاز ، انتظارا « لصوت الجزائر »

---

(1) يعد هذا التعبير التقريري جائزا أيضا على مستوى المواصلات العسكرية اذ يرتفع النسق العام في الاتصال المباشر واللاسلكي في جيش التحرير في مدة تقل عن خمسة عشر شهرا إلى أعلى مستوى تحققه الجيوش الحديثة .

وفجأة تبدو الأسرة الجزائرية لا مبالية ازاء الحشمة القديمة وازاء الروح الاجتماعية الفقيرة القديمة الخالية من المودة الأخوية فتكتشف نفسها بالتالي وقد أكتسبت مناعة ضد كل ألوان التندر الماسة الوقحة ، أو ضدّ كل عبارات العشق التي ينشرها جهاز الراديو هنا وهناك .

ويفقد جهاز الراديو تلك الأداة التقنية بفعل السحر طابع الأشياء المنتمية الى العدو وكان لهذا الحدث فعل السحر وان كنّا قد شهدنا التقدم «الدياليكتيكي» المتناسق في الضرورات القومية الجديدة . فجهاز الراديو ليس جزءا من أسلحة الارهاب الثقافي من جانب الغازي المستعمر . وتذهب المجتمعات الجزائرية الى أبعد من ذلك فتقرر وهي تحول الراديو إلى وسيلة فريدة لمقاومة الضغوط النفسية والعسكرية المتزايدة شيئا فشيئا من جانب الاستعمار ... تقرر المجتمعات الجزائرية في حركة داخلية مستقلة أن تأخذ بالاسلوب التقني الجديد وأن تصبح بذلك قد مدت وصلاتها بأنساق الاشارة الجديدة التي بزغت مع الثورة .

على أنه سيكون لصوت الجزائر المقاتلة في مجال تلاحم الشعب والتحكم فيه أهمية أساسية ، وسوف نرى أن استعمال اللغات العربية والقبائلية والفرنسية ، وهي تعبير عن

مفهوم غير عنصري ـ كما أقر ذلك الاستعمار ـ كانت له أهميته في تطوير وحدة الشعب وتدعيمها ، واشراك الجرجرة في المعركة لفائدة الجزائريين الوطنيين بباتنة أو نمور (الغزوات حاليا) . إن الأفعال المتقطعة والمتجزئة التي يغطيها مراسل صحيفة مناصرة للسيطرة الاستعمارية أو التي تبلغها السلطات العسكرية العدوة ، تفقد ميزتها الفوضوية وتنظّم في اطار فكرة سياسية قومية وجزائرية كما أنها تحتل مكانها في استراتيجية شاملة لاسترجاع السيادة الشعبية .

وهكذا تندرج الأفعال المتفرقة ضمن ملحمة عريضة لا يبقى فيها القبائليون «أولئك الذين في الجبال» وإنما اخوة ينغصون مع « أوعمران » و « كريم » حياة الجيوش العدوّة . ويعني أقتناء جهاز راديو دفع ضريبة للأمة ،أي شراء الحق في الانضمام الى صفوف هذا الشعب المتكتّل من أجل المعركة .

غير أن السلطات الفرنسية قد بدأت تتفطن لأهمية هذا التقدم الشعبي في تقنيات الاعلام وهكذا لم تمض شهور قليلة من التردد حتى ظهرت التدابير القانونية التي تمثلت في حظر بيع أجهزة الراديو حظرا كاملا إلاّ بتقديم سند يسلم من طرف الأمن العسكري أو مصالح الشرطة . ونفس المصير

تشهده أجهزة الراديو العاملة بالبطاريات التي يمنع بيعها بشكل مطلق كما تسحب عمليا من السوق جميع بطاريات الغيار. وحينئذ تسنح الفرصة للتجار الجزائريين في مضاعفة عمليات التهريب منفذين هكذا خدمة وطنية وعاملين بانتظام استثنائي على تزويد الشعب بالبطاريات[1].

وأخيرا يمتلك الجزائري الذي يأمل أن يعيش في مستوى عظمة الثورة امكانية الاستماع إلى صوت رسمي صوت المقاتلين يشرح له المعركة ويقصّ تاريخ مسيرة التحرير ويدمجه أخيرا ضمن نفس الأمة الجديدة.

هنا تتبدى ظاهرة تكتسي من الأصالة ما يسترعى انتباهنا. فالمصالح الفرنسية المتمكنة من أقصى حدود التقنيات ومن خبرتها المكتسبة من الحروب الحديثة والمتدربّة على ممارسة « حرب الموجات » قد تمكنت سريعا من تحديد طول موجات محطة البثّ. وقد أصبحت البرامج آنذاك مشوشة بشكل تدريجي منظم أدى الى جعل صوت

(1) وبديهي أن دخول أجهزة جديدة وبطاريات جديدة للجزائر بالطريق القانوني سيزداد صعوبة بعد ذلك. وهكذا سيؤمن السوق بهذه الأجهزة والبطاريات ابتداء من سنة 1957 من تونس والمغرب. فالدخول المنظم لهذه الوسائل الساعية الى ربط الصلة مع الصوت الرسمي للثورة قد أصبح بالنسبة للشعب ذا أهمية تماثل ادخال الأسلحة أو المعدات لفائدة الجيش الوطني.

الجزائر المقاتلة غير مسموع وظهر شكل جديد من أشكال الكفاح . فهناك نشرات تنصح الجزائريين بالاستماع الى الراديو بصورة دائمة ساعتين أو ثلاث ساعات متتالية. وفي خلال حصة واحدة . تحل محطة بثّ على طول موجة أخرى محل المحطة الأولى المشوشة ، وكان المستمع المندمج في معركة الموجات يتوقع تكتيك العدو فيحبط استراتيجية العدو بطريقة جسدية وعضلية . وفي أغلب الأحيان يكون للمشرف على الارسال الحظ غير المنتظر بسماع « الصوت » ويكتفي الجزائريون الآخرون الحاضرون في القاعة بصدى هذا الصوت المنبعث لديهم عن طريق المترجم المحظوظ الذي يحاصر مباشرة بعد نهاية بث الحصة الاذاعية لتطرح عليه أسئلة دقيقة حول هذا « الصوت » « المجسد ». واذ يرغب الحاضرون الاستعلام عن هذه المعركة أو تلك المشار اليها من لدن الصحافة الفرنسية في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة يعترف الترجمان ـ وقد اكتنفه الضيق واثقله الذنب ـ بأن «الصوت» لم يتعرض لذلك بتاتا .

غير أنه باتفاق مشترك ، وبعد تبادل للنظرات يقرر بأن « الصوت » قد أعرب عن رأيه كاملا تجاه هذه الحوادث الاّ أن الترجمان لم ينتبه للمعلومات المذاعة .

عندئذ يشرع في عمل اعدادي حقيقي يساهم فيه جميعهم ويعاد فيه بناء معارك الأمس وما قبله وفقا للرغبة العميقة للجماعة ولاعتقادها الشديد . ويعوض المستمع الطابع المجزأ للاخبار بابتكار مستقل في الاعلام .

ولا يعدّ الاستماع الى صوت الجزائر المكافحة كحرص على الاستماع الى الطرف الآخر بل كمطلب داخلي للتلاحم مع الأمة المكافحة واستعادة تحمل مسؤولية التكوين الوطني الجديد وترديد الملحمة الجبارة المنجزة في الأعالي بين الصخور وعلى الجبال . ويبلغ الجزائري كل صباح رفاقه بنتيجة ساعات الاستماع ويكمل لهم ما لم يبح به «الصوت» ويجيب على الأسئلة الماكرة التي تطرحها صحافة العدو . وهكذا يقابل تأكيدات رجل الاحتلال الرسمية ونشرات الخصم الهادرة ، بمعلومات معلن عنها رسميا من قبل قيادة الثورة .

ويحصل أحيانا أن يطلق المناضل للترويج ما يراه وجه نظر الادارة السياسية وتطلق الأمة بكاملها خلال بث الحصة الاذاعية ـ لسبب سكوت عن ذكر هذه الواقعة أو تلك يمكن اذا طال أن يظهر مؤلما وخطيرا على وحدة الشعب ـ جملا متناثرة وتخولها معاني معينة ويكاد

صوت الجزائر المكافحة ألا يسمع بشكل متواصل لأنه غير مسموع بصورة واضحة ولأنه يغطيه تشويش دائم يستدعي أن يتغير موجاته مرتين أو ثلاث خلال حصة اذاعية واحدة .. انه صوت متقطع غير أن صوت الجزائر يقول من حي قصديري لآخر أشياء جديدة ويسرد معارك تتعاظم مجدا ويرسم بوضوح انهيار السلطة المحتلة . ان **صوت الجزائر** هذا الذي يعيش شهورا عديدة مطاردا من طرف شبكات العدو القوية للتشويش ، هذه « الكلمة » التي طالما تظل غير مسموعة ، تصبح في نهاية الأمر غذاء لايمان المواطن بالثورة .

هذا « الصوت » الذي نشعر به حاضرا كل وقت والذي نتصور واقعه ، تزداد قيمته أكثر فأكثر بالمقارنة مع أهمية موجات التشويش التي تبثها المحطات العدوة المتخصصة . إن قوة التخريب لدى العدو هي التي توضح واقع العبارة الوطنية وحدّتها . فكلمة الجزائر المكافحة و« صوت » كل جزائري ، والطابع الشبحي لراديو المجاهدين ، كل ذلك يخول المعركة أقصى وجودها .

وفي هذه الظروف فانّ التأكيد على سماع « صوت الجزائر » معناه تشويه للحقيقة ولكنه بذلك وعلى وجه الخصوص فرصة لاعلان المشاركة سرا في جوهر الثورة .

انه اختيار حر ، وان كان غير واضح في الشهور الأولى ، بين الكذبة الموروثة للعدو والكذبة الخاصة للرجل الخاضع للاستعمار التي تكتسب فجأة بعدا معينا من الحقيقة .. وبتجسم هذا الصوت الذي يعد غائبا في أغلب الأحيان وغير مسموع والذي يحس كل واحد بأنه يرتفع في داخله ، والقائم على أساس مفهوم داخلي هو مفهوم الوطن ، يتجسم بصورة لا يمكن رفضها . ذلك أن كل جزائري من جهته ينقل ويذيع اللغة الجديدة . ان كيفية وجود هذا الصوت تذكر بكيفية وجود الثورة . فهي موجودة ماضيا ولكنها غير موضوعية ، وهي متقطعة اربا اربا[1] .

ان جهاز الراديو هو الضامن لهذه الكذبة الحقيقية فكل مساء ، من الساعة التاسعة ليلا الى منتصف الليل يجلس الجزائري للاستماع .. ويحصل في نهاية الأمسية

---

(1) يجدر بنا أن نشير في نفس هذا السياق الى تجربة الاستماع الى الراديو في القبائل . فالفلاحون يجتمعون هنا عشرات بل مئات حول جهاز الراديو ويستمعون في خشوع ديني لـ «صوت العرب» . وقليلون هم الذين يفهمون العربية الفصحى المستخدمة في هذه الحصص ، غير أن الوجه يكشف عن قسوة بالغة كلما استعملت عبارة «استقلال» فصوت عربي يطرق الآذان أربع مرات في الساعة بكلمة استقلال كاف في هذا المستوى من الحماس بأن يصون الايمان بالنصر.

عندما لا يسمع « الصوت » أن يدع الجزائري الراديو في موجة من التشويش أو ذبذبات بسيطة مؤمنا أن صوت المقاتلين ينطلق من هذه المحطة وليس من غيرها . وتمتلئ القاعة لمدة ساعة بضجة مزعجة من التشويش ويتصور الجزائري وراء كل موجة وكل تشنج فعال في كلمات بل معارك مجسدة . وهكذا فان حرب الموجات داخل الحي القصديري تعيد طبع تصادم شعبه المسلح بالاستعمار . ويعود النصر ، بشكل عام ، الى «صوت الجزائر» . أما محطات العدو فتتخلى عن عمليات التشويش كلما انتهت الحصة الاذاعية .. وهكذا يتسنى للموسيقى العسكرية الجزائرية أن تملأ صدور المؤمنين ورؤوسهم بحرية تامة .. فقد لعبت هذه الفقرات الموسيقية الفولاذية التي تشكل مكافأة ساعات ثلاث من الأمل اليومي لمدة شهور دورا رئيسيا في تكوين الوعي القومي الجزائري وتدعيمه .

ويجدر هنا – على مستوى البسيكولوجيا المرضية – التذكير ببعض الظواهر المرتبطة بجهاز الراديو والتي ظهرت إبان حرب التحرير . فقبل عام 1954 ، كانت المقالات الكتابية التي تعرضت الى قضية الجزائريين (المتهلسين) تشير باستمرار في المرحلة المسماة بالنشاط الخارجي الى وجود أصوات اذاعية معتدية وهجومية بشكل عميق . انها

أصوات معدنية وجارحة وشتامة وكريهة تمثل كلها لدى الجزائري طابعا اتهاميا واستقصائيا .

ويتخذ الراديو على مستوى النظام العادي المعمول به ، كنموذج لغزو عنيف من قبل رجل الاحتلال ، في نطاق الحالة المرضية ، دلالات مستلبة للغاية . ذلك أنه يمتلك في الجزائر ـ فضلا عن العناصر السحرية ذات المسار اللاعقلاني الموجودة في أغلبية المجتمعات المتجانسة ـ أي تلك التي ينعدم فيها أي اضطهاد أجنبي ـ قيمة نوعية خاصة . وقد رأينا أن الصوت المسموع ليس بصوت لا مبال ولا محايد : انه صوت رجل الاضطهاد ، صوت العدو ، فالكلمة لا تقبل ولا تفسر ولا تفهم بل ترفض اطلاقا ، كما ترفض وسائل الاتصال ولا تبقى أبدا موضوع بحث لأن الانفتاح الذاتي على الغير قد غدا عضويا وبالضبط مرفوضا في الوضع الاستعماري ، فالراديو قد أصبح في مجال البسيكولوجيا المرضية قبل سنة 1954 شيئا كريها قابلا للقلق واللعنة .

لكن محطة الارسال تتخذ ابتداء من سنة 1954 معاني جديدة كلها . فالراديو وجهاز الاستقبال يفقدان كلاهما ما فيهما من طابع عدواني ، يتخليان عن صبغتهما

كلاهما ما فيهما من طابع عدواني يتخليان عن صبغتهما الأجنبية وينتظمان في نطاق متلاحم داخل الأمة المكافحة. وهكذا، وابتداء من عام 1956 وفي حالة الهوس الوهمي تغدو الأصوات الاذاعية أصواتا خالية من الشتائم والاتهامات وتحل محلها كلمات تشجيعية، وتصبح التقنية الأجنبية «المهضومة» بمناسبة الكفاح الوطني، أداة معركة من أجل الشعب وعنصرا واقيا ضدّ القلق النفسي[1].

ودائما في مجال الاتصالات، تجدر الاشارة الى اكتشاف قيم خاصة بواسطة اللغة الفرنسية .. وبالفعل فان اللغة الفرنسية وهي لغة الاحتلال وناقلة لقوة الاضطهاد قد تبدو أنها ملزمة إلى الأبد بإصدار حكم على الجزائري على نحو محقّر. ذلك أن كل تعبير فرنسي ذا صلة بالجزائري كان يتضمن محتوى مهينا، وكل كلمة فرنسية كانت تسمع كانت تشكل أمرا أو تهديدا أو شتيمة. ويبقى لقاء الجزائري

---

(1) ان ظهور حالات الحماية المرضية وأهميتها كتقنية للدفاع الذاتي وحتى الشفاء الذاتي في التطور التاريخي للأمراض العقلية قد سبق ان درست في طب الأمراض النفسية الكلاسيكية. فالمتهلس الذي ضايقته اصواته الاتهامية لا يجد أمامه مجالا آخر غير خلق أصوات صديقة. وينبغي ايجاد آلية تحوّل الشيء الى ضده والذي نشير اليه في الوضعية الاستعمارية التي تتجه نحو التفكك.

بلأروبي محصورا في هذه المفاهيم الثلاثة وستقوم حصص الجزائر المقاتلة التي تبث باللغة الفرنسية بتحرير لغة العدو من معانيها التاريخية . ونفس الرّسالة التي توجه بلغات مختلفة ثلاث توجه التجربة وتقدم لها بعدا عالميا .
وتفقد اللغة الفرنسية طابعها الملعون لأنها تكشف عن قدرتها في نقل رسائل الحقيقة الى الأمة التي تنتظرها . ومهما جاء في هذا الكلام من تناقض ، فان الثورة الجزائرية ، بل كفاح الشعب الجزائري هو الذي يسهل نشر اللغة الفرنسية في الأمة .

وتفقد الجمل الفرنسية في علم النفس المرضي الطابع الآلي الذي تتضمنه في الشتم واللعن . أما المتهلسون الجزائريون الذين يسمعون أصواتا فرنسية فانهم يتلفظون بكلمات أقل فأقل عدائية . ولا يكون نادرا في النهاية ان نكشف عبر لغة رجل الاحتلال هلوسات تتخذ مسلكا ودّيا من الدعم والحماية[1].

لم تقدّر سلطات الاحتلال أهمية الموقف الجديد للجزائري تجاه اللغة الفرنسية . فالتعبير بالفرنسية وفهم

---

(1) لا يتعلق الأمر هنا بسيطرة الصفة الازدواجية المتناقضة ولكن بتنقل وتحوّل جذري في التكافؤ كما لا يتعلق الأمر بتوازن وإنما بتجاوز دياليكتيكي .

الفرنسية لم يعد مماثلا للخيانة أو لتقمّص هويّة مفتقرة لرجل الاحتلال . فاللغة الفرنسية التي تستخدم في « أصوات المقاتلين » والتي تنقل بشكل فعلي رسالة الثورة تصبح كذلك أداة للتحرّر ، وبينما يعبّر أيّ صوت فرنسي في حالة السيكولوجيا المرضية عند الهذيان عن الرفض وعن العقاب وعن الخزي ، فانّنا نرى أنه ينطلق مع كفاح التحرير عمل رئيسي للتّخلص من اللغة الفرنسية ، ونحضر لما يشبه التكفّل بلغة رجل الاحتلال من قبل الساكن الأصلي[1] .

وقد أدرك الفرنسيون هذه الظاهرة بعد « مؤتمر الصومام » في شهر أوت 1956 . ونتذكر أنه بهذه المناسبة اجتمع المسؤولون السياسيون والعسكريون عن الثورة في وادي الصومام وبالضبط في قطاع عميروش قائد الوحدة العسكرية آنذاك وذلك بغرض ارساء قواعد عقائدية للكفاح وتشكيل

---

(1) وعلى عكس ذلك فان «صوت الجزائر» سيسمع في شكل الحكم بالاعدام من طرف بعض الجزائريين المتعاونين . فهؤلاء الرجال الذين غمرتهم نوبات من الانهيار العصبي والذين ينتمون في أغلب الاحيان الى مصالح الشرطة قد يتعرضون الى الشتم ويوصفون من قبل الراديو بـ « المتمردين » ونفس الأمر بالنسبة للاروبيين والأروبيات الذين تظهر عندهم فورات من التهيج المقلق والذين هم عرضة لتهديدات وادانات باللغة العربية .. وتلك ظواهر كانت عمليا مجهولة قبل سنة 1954 .

« المجلس الوطني للثورة الجزائرية » . وقد انكشف فجأة لقوى الاحتلال بحكم سير الأشغال باللغة الفرنسية ان التحفظ العام والتقليدي للجزائريين في استخدام اللغة الفرنسية في ظل الوضعية الاستعمارية يمكن أن يزول طالما أن ثمة مجابهة حاسمة تقذف وجها لوجه بارادة الاستقلال الوطني للشعب، ضد القوة المسيطرة .

لقد أضلّت هذه الظاهرة بالسلطات الفرنسية بشكل غريب فقد رأت فيها في بداية الأمر برهانا مؤكدا باستمرار عن عدم مقدرة اللغة العربية في استخدام المفاهيم العملية لحرب ثورية عصرية . غير أنه في الوقت نفسه تحث القرارات المتخذة في النظام اللغوي رجل الاحتلال على ادراك الطابع المتعلق بهذه الاشارات وتوقع الغموض والارتباك في جهازه الدفاعي .

وتستقر بين التوجيهات التي تصدر عن الناحية العسكرية العاشرة في الجزائر دائرة من التواطؤ ونوع من امتداد الرقم . فهذان النظامان من الحقائق يتخذان موضوعية عن طريق نظام لغوي واحد . وكان أنصار الاندماج من جهتهم يرون في ذلك مناسبة جديدة لتأكيد « الجزائر الفرنسية » جاعلين من لغة رجل الاحتلال الوسيلة العملية الوحيدة للاتصال

الموضوعة رهن اشارة القبائليين والعرب والشاوية وبني مزاب .. الخ ...

ان هذه الأطروحة على مستوى اللغة تتبنّى من جديد مذهب الاستعمار ذاته . انّه تدخّل الأمة الأجنبية التي تنظم الفوضى المتاصلة في البلد الخاضع للاستعمار . وفي هذه الظروف فانّ اللغة الفرنسية ، لغة رجل الاحتلال ، تعد نفسها متخذة وظيفة الكلمة الالهية ترافقها توريطات «أنطولوجية» داخل المجتمع الجزائري .

وسواء تعلق الأمر بهذه الحالة أو تلك فاستخدام اللغة الفرنسية معناه الاستئناس بخاصية رجل الاحتلال والظهور بمظهر المتقبل للارشادات والرموز بل الأمر معيّن لرجل الاحتلال . ولم يدرس الفرنسيون بجدية كافية هذا التصرف الجديد للجزائري ازاء لغتهم فأشغال مؤتمرات الأحزاب الوطنية قد جرت ـ قبل عام 1954 باللغة العربية .. وبتعبير أدق فان مناضلي منطقتي القبائل أو الأوراس كانوا يتعلمون العربية بمناسبة ممارسة نشاطاتهم الوطنية . وكان التكلم باللغة العربية قبل عام 1954 ورفض الفرنسية كلغة وكطريقة للاضطهاد الثقافي يشكلان نوعا مميزا ويوميا للتفرد والوجود الوطني . فالاحزاب الوطنية قبل عام 1954

كانت تدعم آمال المناضلين وتكّون الوعي السياسي للشعب وذلك بتقييم مختلف الأشكال واحدة واحدة ومختلف سمات الأمة الخاضعة للاحتلال وهكذا كانت اللغة العربية تمثل نموذجا للوجود وأكثر الوسائل واقعية تكسيها كينونة الأمة من أجل رفع الأسرار عنها[1] .

لقد كانت حقيقة المعركة وارتباك رجل الاحتلال في أغسطس 1956 تجردان اللغة العربية من طابعها المقدس واللغة الفرنسية من اصنافها الملعونة . وقد تمكنت اللغة الجديدة للأمة أن تعلن عن نفسها بواسطة عدة شبكات معبرة .

وقد اندمج جهاز الراديو باعتباره تقنية اعلامية ، واللغة الفرنسية باعتبارها دعامة اتصال ممكن في نفس الوقت تقريبا في حظيرة الأمة المكافحة .

لقد سبق أن رأينا أن أجهزة الراديو قد تضاعفت بنسب هائلة عند ظهور « صوت الجزائر المقاتلة » . فقبل عام 1954 لم تكن اداة الاستقبال ـ وهي التقنية الاذاعية لتبليغ الفكرة

---

(1) قررت الادارة السياسية في نفس الوقت تدمير الراديو الفرنسي في الجزائر ، فوجود صوت وطني أدّى بالمسؤولين الى فرض الصمت على راديو الجزائر ، وقد سبب انفجار القنابل الموقوتة أضرارا هامة بالمنشآت التقنية ، لكن هذا لم يمنع اعادة البث ثانية وبسرعة كافية .

من مسافة بعيدة ـ مجرّد موضوع محايد في الجزائر. فجهاز الراديو باعتباره وسيلة يستخدمها رجل الاحتلال لملء جسد الأمة قد اتخذ عند الشعب معاني خاصة .. وكانت ادارة مفتاح الراديو قبل سنة 1954 تعني السماح ببث كلمة رجل الاحتلال واسناد الفرصة للغة هذا الأخير للتغلغل إلى قلب البيت وهو آخر معقل سام من الرّوح الوطنية. لقد كان وجود جهاز الراديو داخل بيت جزائري قبل عام 1954 يشكل مثابة اندماج أوربي واقبال عليه، وانفتاح واع على تأثيرات الرّجل المسيطر. انه قرار «يرخص بالكلام لرجل الاحتلال». فاكتساب جهاز معناه القبول بحصار رجل الاحتلال من الداخل، انه يؤشر الى أن صاحب الجهاز قد اختار أن يعيش داخل الاطار الاستعماري وهو، بغير أدنى شك القاء السلاح أمام رجل الاحتلال.

لقد سبق لنا أن ذكرنا الأسباب التي كان الشعب يشرح بواسطتها تحفظاته ازاء الراديو فقد كان المبرر الأساسي آنذاك هو الحرص على الابقاء على الأشكال الاجتماعية التقليدية ونظام الاشراف العائلي في صورتهما السليمة.

كان يقال أحيانا: «اننا نجهل دائما البرنامج الذي سوف يعرض علينا» و «يقال في البرنامج أي كلام كان»...

وكانت تقدم أحيانا أخرى حجة دينية قاطعة : «انه راديو الكفار» . وقد رأينا أن مثل هذه المقولات العقلانية لا تشكل سوى «ميكانيزمات» مصطنعة غرضها تبرير رفض وجود رجل الاحتلال .

وبانشاء «صوت الجزائر المقاتلة» وجد الجزائري نفسه ملزما الزاما حيويا بالاستماع الى الرسالة واستيعابها وتحملها في الحين . أن شراء جهاز والركوع أمامه على ركبتين واسناد الأذن اليه لم يصبح رغبة في اكتساب معلومات بل اصغاء ـ على مستوى التجربة الهائلة التي تجري في البلاد ـ الى الكلمات الأولى للأمة .

وهكذا يصبح جهاز الراديو اعتبارا لكون الجزائر قد قررت في مسيرتها أن تقص وتتكلم ، جهازا ضروريا . فهو الذي يسمح «للصوت» بأن يغرس جذوره في القرى وعلى الهضاب . ان اكتساب جهاز للراديو معناه «الدخول الى الحرب» دخولا رسميا .

ويقرر الشعب الجزائري ، بفضل الراديو وهو الأداة التقنية المرفوضة قبل عام 1954 دفع الثورة من جديد . لقد أصبح الجزائري وهو يستمع الى الثورة يحس بوجدانه معها ويعمل على تجسيدها .

وتبرز ذكريات الاذاعات الحرة ، المولودة خلال الحرب العالمية الثانية خاصية المثال الجزائري . فقد تمسكت شعوب بولونيا وبلجيكا وفرنسا وهي خاضعة للاحتلال الألماني ، بالصلة التي تربطها بصورة من صور أمتها ، وذلك من خلال الحصص المذاعة من لندن . وكان يغذى عندئذ ويصان الأمل وروح المقاومة ضد رجل الاضطهاد .. ونتذكر على سبيل المثال ان الاستماع الى صوت فرنسا الحرة كان يعد شكلا من أشكال الوجود الوطني وأسلوبا من أساليب المعركة . وقد أشير الى المشاركة الساخنة للشعب الفرنسي بما فيه الكفاية حتى لا نؤكد على ذلك طويلا .

صحيح ان الاستماع الى صوت فرنسا الحرة من سنة 1940 الى سنة 1944 يعد استماعا مفضلا وأساسيا . لكن الاستماع الى الاذاعة ، كسلوك من السلوكات لم يكن أمرا جديدا فقد أخذ صوت لندن مكانه ضمن القائمة الواسعة لمحطات الارسال التي كانت موجودة لدى الفرنسي منذ ما قبل الحرب . لقد كانت تنبعث عبر السلوك الشامل للمستمع صورة رفيعة ، هي صورة فرنسا المحتلة التي تستقبل رسالة الأمل من «فرنسا الحرة» لكن الأمور في الجزائر كانت تكتسي مميزات خاصة . فثمة

في بداية الأمر تجريد الآلة مما كان يرافقها من خصائص المنع والنهي قبل أن تكتسب الأداة تدريجيا ليس صبغة الحياد فحسب بل التمتع بمعامل ايجابي .

لقد كان الاقبال على التقنية الاذاعية واقتناء جهاز للراديو ومعايشة الأمة في كفاحها من الأمور المتطابقة .

فالاقبال الجنوني للشعب على اخلاء كل مخزونات أجهزة الراديو يقدم صورة على درجة كافية من الدقة عن رغبته في المشاركة في الحوار القائم منذ عام 1955 بين المحارب والأمة .

ليس راديو الجزائر ، في المجتمع الخاضع للاستعمار صوتا بين أصوات أخرى ، بل هو «صوت رجل الاحتلال». فالاستماع الى «راديو الجزائر» معناه تقبل السيطرة ، واظهار الرغبة في التعايش مع الاضطهاد . انه بمثابة اعطاء حق للعدو . ان ادارة ازرار الراديو يعني تأكيد الصيغة «هنا الجزائر ، محطة الاذاعة الفرنسية» . وبالتالي فاقتناء الراديو من طرف الرجل الخاضع للاستعمار. معناه استسلام هذا الأخير لنظام العدو واستعداده لطرد الأمل من قلبه .

وخلافا لذلك فان وجود «صوت الجزائر المحاربة»

يغير من معطيات المسألة تغييرا عميقا . وبالفعل فان كل جزائري يحس بأنه مدعو ويريد أن يصبح عنصرا عاكسا لشبكة المعاني الواسعة المتولدة عن معركة التحرير . ان الحرب وهي مصدر للأحداث اليومية ذات الطابع العسكري أو السياسي هي محل تعليق واسع في برامج الاعلام التابعة للاذاعات الأجنبية ، وينفصل صوت الجبال في الدرجة الأولى . لقد رأينا أن الطابع الشبحي وغير المسموع لهذا الصوت لا يضر في شيء من حقيقته الممتدة ولا من سلطانه . ان «راديو الجزائر» واذاعة الجزائر يفقدان كلاهما مالهما من خصائص السيادة .

لقد انقضى من الآن فصاعدا ذلك الوقت الذي كانت إدارة أزرار الراديو بصورة آلية تشكل فيه دعوة موجهة للعدو . فقد أصبح الراديو كأداة تقنية يتخذ عند الجزائري صبغة مخالفة . فهو لم يعد ملحقا بفم رجل الاحتلال بشكل مباشر بل من على يمين شريط الارسال في راديو الجزائر ومن على يساره ، أصبح بالإمكان التقاط محطات لا حصر لها يتيسر للجزائري من خلالها التمييز بين الأصدقاء والمتواطئين مع الأعداء والمحايدين ، ان اقتناء جهاز في هذه الظروف لا يعني الوقوع رهن اشارة رجل الاحتلال ولا اعطاءه فرصة الكلام ولا إثارة الضغائن . انه على العكس

من ذلك ، وعلى مستوى الاعلام في معناه الدقيق .
ابراز الرغبة في الابتعاد عن اعلام العدو وفي الاستماع الى أصوات أخرى وفي الانفتاح على آفاق أخرى .
ان الجزائري قد اختبر واكتشف خلال حرب التحرير وبفضل انشاء «صوت الجزائر المكافحة» وجود اصوات أخرى غير صوته القديم وغير الصوت المضخم بأشكال لا حدود لها للرجل المسيطر .

ان المونولوج القديم للوضعية الاستعمارية التي زعزعها بعد وجود الكفاح قد اختفى كليا ابتداء من عام 1956 .

فقد بدأ يكشف الآن «صوت الجزائر المكافحة» وكل الأصوات التي يلتقطها جهاز الاستقبال للجزائري عن الطابع السريع الزوال والنسبي والخادع للصوت الفرنسي الذي كان يعرض حتى هذه الفترة كصوت وحيد ، لقد فقد صوت رجل الاحتلال عادته المعهودة .

ان «كلمة» الأمة و «فعل» الأمة أصبحا ينظمان العالم وهما يعملان على تجديده .

لقد نبذ مجتمع السكان الأصليين في مجموعه جهاز الارسال قبل عام 1954 وانغلق على نفسه أمام التطور التقني لطرق الاعلام . ان المجتمع الجزائري

كله يرفض الاذاعة ولا يتخذ موقفا متقبلا لمستوردات رجل الاحتلال . فالجهاز في الوضعية الاستعمارية لا يلبي أية حاجة من حاجات الجزائري[1] بل ينظر إليه ، كما رأينا ذلك من قبل ، كوسيلة يستخدمها العدو لمواصلة عمله في «تفتيت الشخصية الجزائرية» من غير ان يلفت الانتباه .

ان الكفاح الوطني وانشاء «راديو الجزائر الحرة» قد أحدثا في أوساط الشعب تحولا أساسيا . فقد اخترق الراديو الجزائر بالقوة وليس بالتدريج .

إننا نشاهد انقلابا كليا للأوضاع في وسائل الإدراك بل في عالم الادارك ذاته . وذلك أنه لم يكن في واقع الأمر في الجزائر تجاه الراديو موقف متقبل أو مشترك أو موافق . فنحن نلحظ وكعملية عقلية ابتداء من عام 1956 «ما يشبه اختراعا في التكنيك» .

ان «صوت الجزائر» الذي أنشىء من العدم قد أوجد

---

(1) يجدر بنا أن نشير في هذا السياق الى موقف السلطات الفرنسية في جزائر اليوم . اننا نعلم بأن التلفزيون موجود في الجزائر منذ بضع سنين . وقد كان الى يومنا هذا تعليق باللغتين يرافق الحصص . لكن التعليق بالعربية قد توقف منذ مدة ، وتلك ظاهرة تعبر مرة أخرى بأن راديو الجزائر يفي كليا للصبغة المعروفة . «الفرنسيون يخاطبون الفرنسيين» .

الأمة وسلم لكل مواطن كيانا جديدا عرفه له بوضوح.

لقد تعود الجنود الفرنسيون ابان العمليات وابتداء من عام 1957 على مصادرة جميع الأجهزة كما منع في الوقت نفسه التقاط حصص معينة. لكن الأمور قد تطورت اليوم. فقد تضاعف «صوت الجزائر المكافحة». وأصبحت تذاع من تونس ودمشق والقاهرة والرباط برامج لفائدة الشعب ينظمها الجزائريون أنفسهم. ولم تعد المصالح الفرنسية تحاول تشويش هذه الحصص القوية والعديدة. ان كل جزائري يملك اليوم فرصة الاستماع الى خمس أو ست حصص متنوعة تذاع بالعربية أو الفرنسية يتمكن بفضلها من متابعة التطور المظفر للثورة خطوة فخطوة. لقد رأينا على مستوى الاعلام كيف حدث ابطال قيمة كلمة رجل الاحتلال. فقد اصبح جهاز الراديو، بعد فرض الصوت الوطني مقابل مونولوج الرجل المسيطر يستقبل الاشارات المذاعة من جميع ارجاء العالم. ان «اسبوع التضامن» مع الجزائر، المنظم من طرف الشعب الصيني أو مقررات مؤتمر الشعوب الافريقية عن حرب الجزائر تربط الفلاح بالموجة الهائلة القلاعة لجذور الطغيان.

سوف يكون للراديو الذي امتزج في هذه الظروف بحياة الأمة في رحلة تشييد البلاد أهمية مميزة. فلا يجوز

بعد الحرب أن يحدث في الجزائر عدم تلاؤم بين الشعب وبين ما يعد معبرا عنه . يجب أن تحل تربية ثورية لبقاء الأمة محل تربية ثورية لكفاح التحرير . وحينئذ نقدر ما يمكن أن تقدمه هذه الأداة المتمثلة في جهاز الراديو من استخدام مثمر .

لقد عرفت الجزائر تجربة مميزة . فقد كان الراديو بالنسبة للكثيرين ومدة سنوات عديدة وسيلة من وسائل رفض الاحتلال والايمان بالتحرير .. وقد فتح التطابق القائم بين صوت الثورة والحقيقة الأساسية للأمة آفاقا لا حدود لها .

مراجع

- محمد الميلي : فرانز فانون والثورة الجزائرية .
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1973 .
- لوكا : سوسيولوجية فرانز فانون ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1971 (بالفرنسية) .
- كوث دافيد : «فانون» نشر سيغير باريس 1970 .
- رينات زهان : «أعمال فرانز فانون» ما سبيرو ـ باريس 1970 .
- سيمون دي بوفوار: «قوة الأشياء» ـ قاييمار ـ باريس 1983 .
- ياسين : فانون ، عمروش وفرعون نشر تونس 1962 .
- حمداني حسن : الفكر السوسيولوجي عند فرانز فانون مجلّة الثورة الافريقية رقم 71 ـ 72 الجزائر 1964 .
- نقويين : فرانز فانون ومشاكل الاستقلال ، «مجلة لابونسي» رقم 107 باريس 1963 .
- جان لاكوتير : انتاج فرانز فانون ، محاضرة ألقيت بالمدرسة الوطنية للادارة .

محتوى الكتاب

رقم الإيداع : 426 – 2007
ردمك : 978-9947-24-097-7

سحب الطباعة الشعبية للجيش
2007

ISBN : 978-9947-24-097-7

9 789947 240977